الواهمة

الواهمة

(رواية)

يسرا طارق

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م
حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E–mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف: عمرو عبد العزيز

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٨٠٨٢ / ٢٠١٩
I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 573 – 5

الواهمة

رواية

يسرا طارق

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

طارق، يسرا

الواهمة: رواية/ يسرا طارق.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ٥ ٥٧٣ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٨٠٨٢ / ٢٠١٩

الفصل الأول

لم تكن تلك الليلة مختلفة عن غيرها من الليالي، التي تلبس فيها السماء عباءتها السوداء لتخفي بعض عيوب النهار، وكانت النجوم تظهر كأنها ثريات علقت في سقفها. وقد عم هدوء وسكون، أضفيا هيبة ووقارًا على القمر الذي يتوسطها، وكأنه يرسل برسائل مشفرة إلى ناظريه. أما سوار فقد كانت كل ليلة تشكل لها حالة من التكرار، التي تعودت فيها على تجرع ألم الوحدة والحيرة والتيه.

جلست تلك الليلة أمام مرآة تسريحتها تتحسس وجهها، الذي بدأت تغزوه بعض التجاعيد، التي لم تستطع إخفاء ملامحها الأمازيغية الجميلة، بأنامل أصابعها الطويلة والرفيعة كأنها مفاتيح لآلة بيانو عتيقة. كانت بداية تلك التجاعيد الخفيفة الظاهرة عليها، خاصةً على جبهتها البارزة الناصعة البياض، تفصح عن امرأة على مشارف العقد الرابع من عمرها،

وعلى حافة العقد الثالث منه. شعرت بغصة الفقدان والخذلان، لأنه عند عتبات منتصف الليل ستكمل سوار أربعين سنة من عمرها. وكأن الحياة تنحرف عنها وتتركها لمتاهات الأقدار وحيدة، بائسة، مسلوبة الإرادة، مستسلمة للارتماء في أحضان العدم والفراغ. تسمرت أطرافها أمام مرآة تسريحتها الخشبية الجميلة الموضوعة في تلك الزاوية المبهمة، والتي تعكس الزوايا الأخرى المقابلة لها من غرفة نومها الواسعة والمرتبة، إلا من بعض الفوضى الخفيفة على السرير الزوجي الكبير المغطى بشرشف زهري أنيق جزء منه مرتب، أما الجزء الآخر فقد عبثت سوار به لكثرة تقلباتها في السرير، بعدما هجر النوم عينيها السوداوين، الواسعتين المحمرتين من الأرق الذي أصابها تلك الليلة. أما رموش عينيها فتضفيان عليها صفة القناصة التي لا تعرف كيف تقتنص فرص الحياة، إنها رموش تقطع الناظر إليها إلى أشلاء تدور في فلك امرأة، تتحرق لشيء لا تعرفه لكنها تتوق إليه. على جانبي السرير كمودان خشبيان زادا من مظهر الفخامة والجمال على الغرفة، أدراج الكمود الذي كان بجانب مكان نومها، كانت كلها مفتوحة بشيء من العنف اللطيف، والأغراض التي كانت به منثورة بفوضى، بعضها على سجاد الأرض، والبعض الآخر فوق وتحت السرير. بحثت سوار في أدراجه عن مهدئ يساعدها على الخلود إلى النوم، لكن الأمر لم يفلح معها. حاولت أن تتحرك من أمام تسريحتها لكن ساقيها لم تسعفاها، فقد بقيتا متجمدتين في مكانهما، وقدماها لم تقويا على حمل جسدها الممتلئ بتنسيق جميل مع منحنياته وتضاريسه. فمشاعر الخوف

والرهبة والإفلات من الحياة إلى المجهول، كانت قد أثقلت روحها التي يحملها جسدها المتعب. كانت سوار مؤمنة بأن الجسد حامل للروح، وأن الجسد لا يساوي شيئًا أمام الجسد الأكبر/ الكون، وأن هذا الكون ليس جسدًا فقط، بل روحًا عظمى تنصهر فيه أرواحنا التي يتغذى عليها ليمنحنا المعنى واللامعنى من وجودنا في الحياة.

لم تشأ سوار تلك الليلة أن تقدم روحها قربانًا لروح الكون. ما كانت على استعداد لنعي جسدها إلى الجسد الأكبر. كابرت من جديد، وتحاملت على نفسها بعد أن لمحت أطياف النجوم والقمر تتسلل من ثغرات نافذتها الكبيرة، المطلة على أحد شوارع مدينة الرباط. أسعفتها قدماها هذه المرة، وتحركت بضع خطوات متراصة وهادئة نحو نافذة غرفتها. رفعت ستارها المتناسق مع الأثاث ولون الغرفة، وفتحتها بكل هدوء ورقة وانسيابية. واتكأت بخصرها الذي يحدد ظهرها القنطري وتقويسته الجميلة، وكأنها آلة التشيللو ركنها صاحبها جانبًا، بعد التوقف عن العزف عليها على حافة النافذة. أمالت جسدها قليلا بعفوية فاخرة، رفعت وجهها نحو السماء، وإذ بها ترى النجوم التي لم تعرف الذكر من الأنثى منها، تزين السماء بفوضوية منظمة، وعبثية منسقة. إنها طلاسم الكون التي يسعى الإنسان دائمًا إلى فك شفراتها، وحل تعقيداتها التي يشكل جزءًا منها. قالت في نفسها وهي في حالة مخاض مع ضجيج صمتها..

– كم هي جميلة هذه النجوم التي تؤثث هذه السماء بجنون الفوضى المنظمة ودبيب العبث المنمق!

وتداركت في نفس الحين..

– هل يمكن أن نؤثث حياتنا بجنون فوضانا المنظمة.. لنحقق جمالًا ما وسعادة ما؟

وأضافت وحبل الغموض يلتف حول عنق أفكارها:

ربما الجمال كما السعادة لا يمكن استعارتهما، بل نحن من نمنحهما لأنفسنا. وإذا كان جسدي يحمل روحي فهو يحمل جمالها أيضًا، فهل سيتعايش جمال روحي مع الفوضى التي بدأ الزمن يلحقها بجمال جسدي؟

قالت وهي في حيرة من أمرها:

– في الأمر شبهة ما!

صحيح أن الناس تقول بألسنتها أنها تفضل جمال الروح على جمال الجسد، لكن عندما ينظر لأي شخص رجل أو امرأة، فإن أول كلمة تقال عنهما إنه وسيم وإنها جميلة أو العكس. إن هذه المفارقة المعقدة هي ما كان يربك أفكار سوار في ليلة عيد ميلادها الأربعين. وكونها امرأة تعيش في بيئة تنمو فيها السكيزوفرينيا(*)، كما ينمو الفطر البري في أرجاء المناطق الساحلية، كان يزيد من درجة ارتباكها أكثر. فهي تمقت السكيزوفرنيين، تمقتهم بشدة. لأن أفكارهم شيء وواقعهم شيء آخر. وتمقت نفسها لأنها لا تعرف كيف تفلت من عقوبة العيش معهم.

(*) الفصام.

استدارت سوار وبالصدفة انتبهت إلى طيفها في المرآة يتحرك، رفعت شعرها الأسود الطويل الذي تتخلله شعيرات من الشيب الأبيض بيدها اليمنى، فانتبهت أن طيفها يرفعه بيده اليسرى، أدركت أن حتى أطيافنا تعكس جمالًا آخر رغم تطابق الشكل. بعد أن أطلقت العنان لأفكارها الغامضة، وأفسحت لها مجالًا للتفاوض، أحست أن نسيم الليل يغازلها، استنشقته بكل ما يحمل من روائح أسرار مدينة كلها تناقضات، تفترق عند أول مفترق طرق يعترضها. أمعنت النظر في السماء أكثر وتذكرت قصص جدتها عن الملائكة التي تسكن السماء، والشياطين التي تقبع في أعماق الأرض. فسوار وهي طفلة استمتعت بقصص جدتها كما يستمتع بها جميع الأطفال. كان منطق أساطير جدتها يقود إلى جمال ما، جمال لم تفهم سوار معناه داخل إطار منطق لم تضعه هي، بل جدتها وجدات جداتها اللواتي لم ترهن يومًا. حتى عندما لم تعد سوار تلك الشابة الطموحة المتفوقة في دراستها، والتي تحدت قساوة جغرافية الريف الذي قدمت منه، ابنة السي حسن المقاوم الريفي، الذي التحق بصفوف حركة جيش التحرير المغربي، الذي تأسس في بدايات القرن الماضي، والذي اعتبره مسارًا طبيعيًّا لاستمرارية روح حركة المقاوم والمجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي. السي حسن هذا الرجل الذي قاوم الحياة قبل أن يقاوم الاستعمار، والذي خبر حلاوتها ومرارتها، هو من اختار لابنته المفضلة والأولى، بعد أربعة أولاد كثمار لزواجه، اسم سوار، اسم عربي غريب، لم يسمه أحد قبله لبناته في قبائل الريف، التي تتحدث اللغة الأمازيغية.

كان اسمًا يصعب حتى على والدتها "نونجا" أن تنطقه بسهولة، لذلك كانت تناديها "سوا" بلكنة ريفية، تخلصها من عذاب نطقه باللغة العربية التي لم تفقه فيها شيئًا يومًا، إلا حفظ سورة "الفاتحة" وسورة "قل هو" كما يحلو لها أن تسميها. وعندما كانت سوار تسخر منها لأنها عندما تصلي تنطق بآيات قرآنية بصعوبة، كانت تقول لها بالريفية..

– "ميمونة ثسن أربي، أربي إسن ميمونة"، "ميمونة تعرف الله، والله يعرف ميمونة".

وميمونة هذه كانت بطلة أسطورة ريفية، يختزنها الريفيون في مخيالهم الجماعي، لأنها كانت مثالًا للمرأة الطيبة الصادقة، التي تمتنع عن فعل الشر لا رهبة من قانون ولا طمعًا في جنة، بل استجابة لصوت الخير فيها. كانت امرأة لا تعرف كيف تزيف مشاعرها. وكانت تصلي لله بطريقتها الخاصة، وعندما يحاول أحد ما انتقاد طريقتها في الصلاة، كانت تجيبهم بعبارتها العفوية والبسيطة، التي تحولت إلى مثل شعبي بالريف..

– "ميمونة تعرف الله والله يعرف ميمونة".

لقد أدركت سوار في تلك الليلة أن والدتها فيها شيء ما من هذه المرأة التي سبقت بحكمتها زمانها، والتي فهمت أن علاقة الإنسان بالرب لا تحتاج إلى وسيط. ولعلها كانت أكثر وعيا وحداثة من الكثير من المتشدقين والمتظاهرين بالحداثة في زماننا هذا.

لم يكن مرور أطياف جدتها ووالديها تلك الليلة في ذاكرتها مرورًا عابرًا، بل مرورا أحدث ثقوبًا من الحنين في قلبها، ثقوبا آلمتها بشدة. فالحنين ألم لذيذ وإحساس غامض، يأتي خلسة ومن ثم يغادر، دونما أن نعرف إلى أين؟ وإلى من؟ كانت ذكرى والدها لصيقة باسمها، وكانت كلماته حينما ذهبت يومًا إليه، وهي طفلة في سن السادسة، تشكو له من سخرية صديقاتها وإخوتها من اسمها، وتستفسره عن سبب عدم تسميتها باسم ريفي مألوف كباقي البنات، فكان جوابه بالنسبة لها أصعب من نطق اسمها من لدن أهلها وصديقاتها:

– "أتعلمين يا سوار أن إنجاب الأنثى وصمة عار كبيرة على جبين كل رجل خاصة إذا ولدت قبل إخوتها الذكور، لقد تعلمنا من آبائنا وأجدادنا أن الرجل لا يستطيع رفع رأسه عاليًا إذا أنجبت له زوجته إناثًا فقط أو إناثًا قبل الذكور، إنها إهانة كبيرة لنا كرجال وطعن في رجولتنا وفحولتنا أمام العائلة وأمام كل القبيلة، أما أنت يا سوار فجئت إلى هذه الحياة بعد أربعة ذكور سالمين من كل عيب، لقد كنت لي بمثابة طوق نجاة من العار الذي كان سيلحق بي لو أنك ولدت قبلهم، كنت أطلب من الله في صلواتي التي كنت أؤديها واقفًا شاهرًا بندقيتي في وجه المستعمر.. أن يرزقني بطفلة تزين حياتي بعد أن أنتهي من تلبية نداء الوطن.. ولهذا قطعت وعدًا على نفسي أمام الله أنه إن رزقني بابنة بعد أن يرزقني بالذكور أن تكون كالسوار الذي لا يفارق معاصم النساء، وعندما ولدت أسميتك سوار لتكوني سوارًا جميلًا في معصمي حياتي".

كان والدي في هذه الإجابة يقدم لي بوحَ مقاوم، ارتقى بمفهوم المقاومة السياسي إلى مفهوم المقاومة الإنساني. كان رجلًا يحمل حب الموت في بندقيته وحب الحياة في قلبه. كان كل ما يحلم به هو حضن امرأة يحتويه، وحضن وطن يحتمي فيه. فبالنسبة له حضن المرأة وطن وحضن الوطن امرأة، والارتماء في غير حضنيهما خيانة.

والدي تغير كثيرًا بعدها، فهو لم يتقبل كمعظم المقاومين الذين اختاروا سبيل الكفاح المسلح ضد الاستعمار أن يركنوا على الهامش غرباء مجهولين دون أن تلتفت إليهم أنظار مغرب ما بعد الاستقلال، لم يكن والدي يسعى إلى السلطة ولا يطمع في جاه أو مال، كان يخبرنا دائمًا أن ما قام به يدخل في إطار الواجب الوطني، هذه القناعة سرعان ما ستتلاشى لديه بعد فترة وجيزة على الاستقلال وعودة الملك محمد الخامس عندما وجد نفسه معتقلًا يواجه حكمًا بالإعدام بتهمة المشاركة في التخطيط للتآمر على ولي العهد الحسن الثاني، كان يحكي لنا بألم شديد تفاصيل تعذيبه حين تم وضعه في أحد سجون القنيطرة، الذي مكث فيه إلى حين صدور عفو في حقه بتدخل من أحد المقاومين النافذين في دواليب السلطة، حين غادر والدي السجن عائدًا إلى الريف كان متيقنًا بأنه سيحصد البؤس والفقر بينما سيتسلم الخونة مقاليد الأمور، ولأنه كان رجلًا شديد العناد رفض الاستسلام للذل والحاجة فتحول شغفه من جمع الأسلحة وصنع القنابل إلى جمع المال. فحقق ثروة كبيرة ولم يتردد في قبول أي عمل، وتنقل بين دروب عدة أعمال مختلفة، حفر الآبار،

زرع الحقول، قطف الرمان والتفاح، عمل نجارًا وخبازًا إلى أن استقر به العمل مع "الدون جوسيف"، أو عمي يوسف كما يناديه أطفال حينا بكاسابراتا. كان أحد اليهود الإسبان الذين عاشوا في الناظور، وكان صاحب محطة الوقود الوحيدة آنذاك بها. عمل لديه والدي وتعلم على يده كل أسرار العمل وخباياه. لكن عمي يوسف اضطر أن يترك كل ثروته وراءه، لأنه كان من الإسبان المهاجرين إلى الريف. وبمجرد إعلان إسبانيا موت الجنرال "فرانكو"، اضطر كل المهاجرين الإسبان الذين كانوا يعيشون بشمال المغرب، إلى بيع ممتلكاتهم للعودة إلى إسبانيا. كان حينها والدي قد ادخر قدرًا مهمًّا من المال، إلى جانب المبلغ الذي تحصل عليه من بيع المجوهرات الذهبية، التي كانت ملكا لوالدتي والتي لم تبخل بها عليه، كما هي عادة الريفيات اللواتي يعتبرن التضحية من أجل رجالهن شرطًا من شروط الحفاظ على كرامتهن كنساء. استطاع والدي حينها أن يعرض على الدون جوسيف شراء محطة الوقود منه، والفيلا التي كان يملكها بأزغنغان، ورغم أهمية المبلغ الذي جمعه، فإنه لم يكن كافيًا لشراء كل ما يملكه الدون جوسيف، لكن حب هذا الأخير لوالدي "حسنيتو" كما كان يناديه، بلكنة إسبانية، جعلته يقبل بالمبلغ المتوفر لدى والدي، ولم يبعه محطة الوقود والفيلا فقط، بل حتى سيارتيه من نوع "فورباغي"، ومطحنة القمح بأزغنغان. كانت هذه بمثابة هدية من السماء لوالدي، الذي لم يضيع فرصة الحصول عليها، فحولها بمجهوده واجتهاده وذكائه من محطة للوقود إلى أكبر شركة استثمارية في الريف لبيع الغاز، وحول

المطحنة إلى سلسلة لأكبر المخابز بشمال المغرب.

والدي كان متيمًا بسيارته من نوع "ميرسديس" الحمراء، التي اقتناها بعد نجاح إحدى صفقاته الاستثمارية، والتي لم يكن يمتلكها إلا أعيان المنطقة بالريف، وبعض المهاجرين الذين عادوا من ألمانيا في بداية الثمانينيات. وقد كان يصرح بحبها أمام والدتي، التي يخبرها بأن السيارة مثل "الزوجة" لا يمكن لأحد أن يشاركه حبه لها، ولا أن يعيرها لأحد ليقودها. كانت والدتي، كغيرها من الأمهات الريفيات، امرأة طيبة ومسالمة وبسيطة، لكنها عنيدة وساذجة أحيانًا، ولا تبوح بمشاعرها الحقيقية لأحد حتى وإن كان أحدًا من أبنائها. كل همها في هذه الحياة ألا يتزوج والدي عليها بامرأة ثانية أو ثالثة، حتى لا تذهب ثروته التي ساهمت معه في تكوينها إلى أولاد من امرأة أخرى. وظنًّا منها أن إنجاب خمسة أولاد، وثلاث بنات، بالإضافة إلى ثلاثة أطفال توفوا عند ولادتهم، سيكونون بمثابة الوتد الذي سيربط والدي بها إلى الأبد.

أنا سوار الكبيرة بين شقيقتي، والطفلة الخامسة والمفضلة لدى والدي. لأنني ولدت بعد كل من إخوتي الذكور، محمد وعبد القادر وعبد الواحد وحمادي. وكانت العادة تقتضي في الريف تفضيل البنت التي تولد بعد إخوتها الذكور، وإعطاءها مكانة هامة وبارزة بين أفراد العائلة.

تزوج إخوتي الذكور كلهم وفضلوا الهجرة إلى أوروبا، عوض البقاء إلى جانب ثروة والدي. ولم يظل في البيت الكبير سوى والدتي وشقيقتي

كريمة ولويزة وأخي صالح. كريمة كانت شقيقتي الوسطى، تحب نفسها أكثر من كل شيء، تتباهى بجمالها وبكبر حجم عينيها الخضراوين، وطول شعرها الأشقر المموج، أمام كل من تتيح لها فرصة اللقاء بهم. لم نكن متشابهتين في شيء. نتشاجر طوال النهار ونتبادل الشتائم. ولم يكن يجمع بيننا سوى تلك النافذة الزرقاء في الصالة الكبيرة، التي كانت كل واحدة منا تتهافت عليها، لأنها الوسيلة الوحيدة التي تسمح لنا بالاتصال بالعالم الخارجي عندما نكون بالمنزل. هذه النافذة الزرقاء التي كانت سبب خصامنا وشجارنا المتواصل، كانت بالنسبة لي نافذة روحي، ومرآة على الحب والحياة والحرية والسعادة. كانت الوسيلة الوحيدة التي تمكنني من مشاهدة أحمد ومراقبته أثناء خروجه من الإعدادية التي أمام منزلنا. كنت أترقب وأنتظر بشوق الوقت الذي أعود فيه إلى منزلنا. فما إن أخرج من المستوصف الإسباني، الذي كانت تشرف على تسييره الإرمانات "الأخوات الإسبانيات" التابعات للكنيسة الإسبانية الموجودة بأزغنغان. حتى التحقت به بعد أن أقنعت والدي بصعوبة ليسمح لي بالتدريب على التمريض، والذي حرمني من تحقيق حلمي في أن أصبح طبيبة بعد أن حرمني من متابعة دراسة بالجامعة. وخلال الطريق القصير، كنت أمني نفسي بالصور الجميلة التي ستلتقطها عيني عندما أعود وأفتح نافذتنا الزرقاء المقابلة للإعدادية. لكنني عندما أصل أجد شقيقتي كريمة قد استولت واستحوذت على النافذة، التي تطلق منها رسائلها الغرامية المشفرة لبوزيان، بائع أشرطة الفيديو، الذي كانت هائمة في حبه.

بوزيان هذا أخذ ترخيصًا من البلدية، بعد أن استطاع أن يقنع معظم السكان بضرورة هدم السينما باعتبارها لم تعد تستطيع منافسة أشرطة الفيديو التي دخلت بيوت الناس في كل أنحاء العالم. وسمحت له البلدية بأن يبني محله التجاري لبيع أشرطة الفيديو، مكان سينما "إلموندو" الإسبانية. السينما الوحيدة التي كانت كالشمس التي تنير ظلام مدينتي أزغنغان، بأفلامها الهندية والعالمية، والتي من خلالها أدمنت النور ورأيت كل ما كانت تحكيه لي جدتي يتحرك أمامي. كنت أرافق والدي دائمًا إلى سينما "إلموندو"، عندما كان والدي لا يزال يعمل عند الدون جوسيف. كانت فرحته الوحيدة التي يكسر بها روتين أسبوع كامل من العمل الشاق، هي أن يصطحبني يوم السبت إليها. وكنت أنا أيضًا أنتظر حلول السبت بشغف كبير، رغم أنه كان أطول أيام الأسبوع التي كنت أقضيها داخل حجرة الدرس.

حتى عندما كبرت أختي كريمة، كنت دائمًا من يفضل اصطحابها معه إلى سينما "إلموندو"، وخصوصًا عندما يريد مشاهدة فيلم هندي. ومن يومها بدأ التنافس بيني وبين شقيقتي. كانت عنيدة جدًّا لكنني كنت أفوقها عنادًا، فكانت دائمًا تستسلم لي في نهاية المطاف، خوفًا من أن أحرمها تقاسم ما يشتريه لي والدي من حلويات وسكاكر ونحن في طريق العودة إلى البيت. أما الآن فقد تغير الوضع قليلًا وأصبحت تستسلم لي خوفًا من أن أشي بها عند والدتي. فأفشي بحبها وعلاقتها الغرامية،

التي تربطها ببائع أشرطة الفيديو بوزيان، الذي كانت تتنافس على حبه كل فتيات الحي، لأنه في نظرهن شاب وسيم وجذاب. فتجدنا نتشاجر ونتعارك، ثم تنسحب متذمرة كعادتها وتترك لي النافذة حتى أسمح لها فيما بعد بأخذ مكاني.

كنت أتهيأ للنافذة كما يتهيأ الخيال للانفلات من الواقع، أغدق الكحل في عيني وأحمر الشفاه، الذي كنت أقتنيه من مليلية خلسة من والدتي، بعد أن أزور عمتي التي كانت تقطنها. لم تكن والدتي تسمح لنا بالتبرج أو وضع مساحيق الماكياج. كان الأمر أشبه بجريمة. هكذا هي تقاليدنا، فالمرأة لا تتبرج إلا لزوجها. كنت ألبس أجمل ما لديَّ ثم أراقب الساعة، وبمجرد أن تشير عقاربها إلى الثانية عشرة زوالًا، حتى تقرع أجراس قلبي متنبئة بقرع جرس الإعدادية. أهرع بعدها إلى النافذة لأترقب فارس أحلامي وهو يمتطي أشواقي، ويخرج من باب الإعدادية. هاهو يبدو لي من هناك بعيدًا، يخرج فيستبقه ظله وآهات روحي. كنت أراه أينما وجهت نظري فيرتجف قلبي، لم أكن أعرف كم عليَّ أن أريق من حبر الصبر حتى يشرق وجهه من نافذتي الزرقاء، كان يلزمني صوت القدر لأقيس المسافة. كان يقترب واقترب أنا من الموت في هيبته. وعندما كان يوشك أن يرفع رأسه نحو نافذتي، أوشك أنا حينها على أن يغمى عليَّ. إنه أحمد المستبد بذهني والذي عندما أفكر فيه تصبح كل الأشياء من حولي أقل شأنًا وقيمة كأنني أعيش في حيز آخر من هذه الحياة.

يخرج أحمد ممسكًا بحقيبته السوداء، وكأنه يمسك بيدي وبضفائر شعري الأسود الغجري. كان أحمد الشاب الذي أحبه ويحبني. كنت أراقبه يوميًّا، وأنتظر منه كل يوم رسالة كان يرسلها لي مع أخي الصغير صالح، الذي كان يدرس له في السنة الثالثة إعدادي. كانت رسائله معطرة برائحة طبشوره، ومفعمة بأنفاس مداده. وكان أخي صالح يحضرها لي، رغم أنه شاب ريفي متشبع بتقاليدنا وعاداتنا الريفية المحافظة جدًّا، إلا أن علاقتي بأخي كانت متينة، متانة جدران قلعة ثازوضة الرابضة على جبل أزروهمار. في البداية كانت علاقة طفلة بلعبتها، أما الآن فأصبحت علاقة أم بابنها. كان متعلقًا بي ويحبني كثيرًا، لأن والدتي لم تشرف على تربيته، بل كلفتني أنا باعتباري الأخت الكبرى برعايته، والاهتمام به حسب العادات والتقاليد التي تهيئ البنت لتكون أمًّا في المستقبل. لم أكن متحمسة للأمر في البداية، واعتبرت أن والدتي حملتني هذه المسؤولية، التي حرمتني من الاستمتاع بطفولتي ظلمًا وعقابًا لي، لأنني كنت أحب والدي وأفضله عليها، وأنه كان من الأجدر أن تطلب من أختي كريمة أن تساعدني في ذلك. لكن سرعان ما وجدت علاقتي بأخي صالح هي مصدر للإفصاح عن فسحة الحب التي بداخلي، فبدأت أتعلق به أكثر فأكثر، وأصبح صالح بالنسبة لي هو لعبتي التي لعبت بها في طفولتي، وأخي وابني وصديقي وحارس عشقي، وزهرة عمري التي أهدتها لي الحياة. وها هو الآن سبب من أسباب عشقي لأحمد، الرجل الذي أحب وأريد الزواج به.

لوحت له بيدي من النافذة، فأجابني أحمد بابتسامة خفيفة، مفادها أن الرسالة مع أخي صالح. أغلقت النافذة بسرعة حتى لا تكتشف والدتي أمري، وحتى لا يلمحني والدي من الخارج. لأنه إذا اكتشف قصتي مع أحمد فسيقضي عليَّ دون أدنى شك. ثم أسرعت لاستقبال أخي صالح، وطبعت على خده قبلة وعانقته كالعادة، كنت أنكث على شعره بعد أن يقابلني بشغبه الطفولي اللذيذ، فهو لا يمنحني الرسالة حتى يستفزني، ويخرج من داخلي تلك الطفلة التي لا تريد أن تكبر خارج قفص روحها.

بعد أن أحصل منه على الرسالة، أتوجه بسرعة إلى غرفتي، أقفل الباب بإحكام، ثم أتأكد من إحكام إغلاقه، لأطمئن أنه ما من أحد سيكسر خلوتي، ويدخل عليَّ الغرفة. كنت أقبل الرسالة أشتمها، وأضعها على صدري، وأطرح على نفسي السؤال قبل أن أفتحها، ترى ما هي أكثر الأشياء التي يصعب الحصول عليها في هذه الحياة؟ فأعدد: الفرح، السعادة، النشوة، اللذة. أرفعها من على صدري، ثم أفتحها بلهفة العشاق الهلامية. أقرأ الرسالة، مرة ومرتين وثلاث، فأفرح وأحس بالسعادة، وأنتشي بآلام الأشواق اللذيذة، أرفع صوتي بصمت من النشوة، أتصبب عرقًا لذيذًا، ثم يغمى عليَّ من الشهوة واللذة ومن الحياة. أخرج إلى فناء منزلنا، أجد والدتي كالعادة منهمكة في إعداد الطعام، وبرفقتها أختي لويزة، الفتاة الريفية الجميلة المسالمة والخجولة، التي يزيدها احمرار وجنتيها جمالًا، فألتحق بهما لأساعدهما، فتطلب مني

والدتي أن أنادي على أختي كريمة لتساعدنا حتى نتمكن من إعداد وجبة الغذاء قبل موعد عودة والدي. لكن كريمة كالعادة لا تجيب، وتتهرب من مساعدتنا في أعمال المنزل، فهي لا تحب العمل، وكل ما تجيده هو الوقوف أمام المرآة والتباهي بجمالها. تطلب مني والدتي البحث عنها، أجوب المنزل الفسيح بأكمله، فلا أجدها. لم يتبقَ سوى سطح المنزل، أصعد السلالم إليه فأسمع همسًا خفيفًا، أقف فجأة لأجد أرنبتنا، وأنا في دهشة وذهول تام، تفترس أحد صغارها الذين أنجبتهم حديثًا. أفر وكأن العالم متهم بشبهة الأرانب. أعود أدراجي وأنا في صدمة مما رأيت. أعجز حتى عن تكرار ندائي على شقيقتي، أستجمع قواي بداخلي، وأصرخ بشدة علها تجيبني، لكنها لا تجيب، ولا تكترث لي ولا لوالدتي ولا لأمر الأرانب. هي فقط تكترث لأمر حبيبها بوزيان، وكيف ستلتقيه في غفلة من والدي، ودائمًا ما تتحجج بالذهاب إليه لكراء أو شراء شرائط الفيديو من جديد. أعود إلى أمي وأختي لويزة إلى المطبخ، فتسألني والدتي..

– أين هي بنت الحرام "أتشيماس" ستأكلها أمها؟

كانت هذه الشتيمة لا تفارق لسان الأمهات الريفيات، أردت هنا أن أخبرها بأكل الأرنبة لأحد صغارها، لكنني لم أتجرأ خوفًا من أن تأكل كريمة هي الأخرى. تكمل والدتي إعداد وجبة الغداء في قلق تام وواضح على وجهها. فهي تخاف من عودة والدي على غفلة، وأن يلاحظ غياب أختي عن البيت، حينها فقط ستقوم حرب بينهما لا يمكن إخماد

نيرانها، إلا بالسب والشتم والضرب أحيانًا.

بعد برهة من الزمن، عادت كريمة، وبمجرد صعودها الدرج الأول دخل بعدها والدي مباشرة، ليجدها تتسحب على الدرج، فأسرعت تنادي على والدتي خوفًا من أن يقوم والدي بضربها. بدأ والدي بالصراخ على والدتي وهو ينادي عليها:

- شم شم! "أنت أنت"!

كان بعض الرجال عندنا لا ينطقون أسماء زوجاتهم، لأن في الامر انتقاص لرجولتهم واحتقار لكبريائهم، فيكتفون باستعمال الضمائر للنداء عليهن. بدأت أمي ترتعد من الخوف، وتوجه إليها والدي بالسؤال:

- أين كانت تتسكع هذه؟

كانت والدتي تلجأ إلى الكذب على والدي في مثل هذه الحالات، فأخبرته بتوتر أنها أرسلتها إلى خالتي "خديجة" والدة أحمد، لتخبرها بأن تمر عليها في المساء. فقد تعودت والدتي أن تجمع نساء الحي كل مساء، ليشربن الشاي ويتبادلن الأخبار وإلقاء "إزران" الشعر لينفسن عن بعضهن البعض من سطوة الرجال عليهن. وباعتبار والدتي زوجة أحد الأثرياء، فكانت هي من تتكلف بجمعهن في بيتنا الكبير.

بعد أن هدأت الأجواء قليلًا، أخذت والدتي وجبة الغداء إلى والدي، الذي كان قد قسم المنزل الكبير إلى قسمين، قسم له وقسم لنا. وقد كان

يتناول وجباته بمفرده، عقابًا لوالدتي. هذا العقاب لم ينتهِ منذ أن ذهبت إلى بيت والدها عندما علمت بوفاته. كانت قد ذهبت دون أن تأخذ إذنًا منه كما تتطلب العادة، لأنه كان مسافرًا في عمل إلى فاس. طبعًا لم يشفع لوالدتي موت والدها، وغضب منها والدي غضبًا شديدًا، لأنه كان يغار عليها كثيرًا، ولا يسمح لها بالخروج إلى أي مكان دون أن تأخذ إذنًا منه. وعقابًا لها منذ ذلك اليوم الصيفي سنة 1977 إلى حدود هذا اليوم من 1984، هو السجن في المنزل وعدم السماح لها بالخروج بمفردها، حتى وإن كانت مريضة. وفي حالة مرضها أو حملها كان يحضر لها إحدى الأخوات الإسبانيات لتوليدها، أو الكشف عليها لوصف الدواء. وبقيت والدتي سجينة في البيت إلى يومنا هذا، لم ينتهِ عقاب والدي لها. أما هو فقرر أن يتناول وجباته بمفرده منذ ذلك الوقت.

كانت النساء في الريف ملكًا للرجال، حيث يتحكم الرجل بنزعته الذكورية في كل شيء، فكان لا يسمح لهن حتى بحضور جنائز أقاربهن، لأن الرجال في الريف يغارون كثيرًا على نسائهم، لدرجة أن المرأة إذا خالفت رأيه أو رغبته، قد ينتهي بها الأمر مطلقة في بيت والدها أو سجينة في بيت زوجها كما حدث مع والدتي.

أخذت له أمي وجبة الغداء كالعادة إلى الصالة الكبيرة، التي كان يجلس فيها وحيدًا. فاجأها بطلب غريب ذلك اليوم، لقد أمرها بأن نجتمع معه على مائدة الغداء. استغربنا طلبه، لكن لا مجال للأخذ والرد

معه، فهو الآمر الناهي، ونحن علينا الطاعة والاستجابة فقط. لم نجلس على مائدة معًا مدة سبع سنوات، منذ وفاة جدي عبد السلام، حين كنت في سن الرابعة عشرة. أما الآن فعمري واحد وعشرون سنة، أكبر كريمة بسنتين ولويزة بأربع سنوات، وصالح بسبع سنوات. لم يكن ينقصنا على تلك المائدة إلا تواجد أخي الصغير صالح، الذي لاحظ أبي غيابه فسأل أمي عنه. أخبرته أنه ذهب إلى منزل خالتي "خديجة" والدة الأستاذ أحمد، فاستشاط أبي غضبًا، وقال لها:

– ألم أخبرك ألا تسمحي له بالذهاب إلى ذلك الملحد الخبيث! بسببه سأرسل صالح بعيدًا عن تلك الإعدادية.. سأرسله ليكمل دراسته بفاس أو الرباط.. بعيدًا عن أفكاره الملوثة..

تبادلت نظرات القلق مع شقيقتيَّ، اللتين كانتا تعلمان ما الذي يعنيه لي أحمد. فبمجرد أن توقفت عن الدراسة، بعد حصولي على شهادة الباكالوريا، وبعد أن رفض والدي أن أكمل دراستي الجامعية بوجدة أو بفاس. فقط لأنني بنت ولست ولدًا ولا يسمح للبنات عندنا بإكمال دراستهن، رغم أنني كنت متفوقة ومن الأوائل وكنت طموحة وأرغب في أن أبحث لنفسي عن مصير.

وأن أختار طريقي نحو مستقبل تحاكم فيه الأقدار بدلًا من أن تحاكمني، كان أحمد هو من تعلمت منه حب العلم والمعرفة، لقد كان يرسل لي كل رسالة حب بين صفحات كتاب، لا تهم نوعية الكتب التي

كان يرسلها لي، سياسية أو فلسفية أو أدبية، المهم كانت كتبًا تشهر حبًّا حين أقلب صفحاتها. كان قد وعدني إن أنا قرأت كل ما يرسله لي من الكتب أنه سيتزوج بي، وسيسمح لي بعد الزواج بإتمام دراستي الجامعية. كان هذا حلمي المؤجل، المدفون بين دفتي صدري، لا أبوح به إلا لنفسي. أحمد كان بالنسبة لي القدوة، التي أريد لأخي صالح أن يقتدي بها، وأن يكون مثله عندما يكبر، مثالًا للأخلاق والمبادئ السامية، ومدافعًا شرسًا عن الحقوق المهضومة للطبقة العاملة والفقراء. فجأة أيقظني صوت والدي الرخم من شرودي.

– ماذا عنك يا سوار؟ ألا تريدين التخلي عن عنادك؟ لقد جاء اليوم عمك الطاهر للمرة الرابعة! وينتظر مني جوابًا بخصوص زواجك بابنه سمير.. هو سيعود هذا الصيف من بلجيكا.. ويريد إقامة العرس في أقرب وقت إن كنت موافقة.. وبعدها تذهبين برفقته إلى بروكسل.. إنهم عائلة غنية ومن مستوانا الاجتماعي.. وأنا لا زلت أنتظر منك جوابًا حتى أخبرهم بقراري النهائي..

لم أحرك ساكنًا وانحزت إلى الصمت. الانحياز إلى الصمت أشبه بالانحياز إلى الموت. لماذا نصمت؟ لماذا كل تلك الأساطير والقصص والحكم التي نسجت عن الصمت؟ هل الصمت خاصية الحكماء والأذكياء؟ أم خاصية الضعفاء والجبناء؟ كل ما أعرفه أن والدي يستقوي عليَّ بصمتي، وهكذا يستقوي الدكتاتور على الضعفاء. كل

ما فعلته في تلك اللحظة أني بلعت تلك اللقمة الصغيرة، التي بقيت عالقة في بلعومي، وبنظرات كلها حسرة وانكسار وانهزام وانسلاخ من الأمل، استقر نظري على والدتي. كنت كنرسيس الذي ينظر إلى نفسه أول مرة في البحيرة، لكن الفرق بيني وبينه أن نظرات أمي وعينيها لم تعكسا جمال أحلامي المنهزمة، على ضفاف أنهار أمومتها. كانت والدتي متوترة، تخفي خوفًا مستترًا، من غياب أخي.

طلب أبي من أختي لويزة أن تشغل التلفاز. كان تلفازًا مركونًا في زاوية الصالة الكبيرة، يحمل زخرفات وزهريات فوقه. كانت تغطيه أمي بإزار أبيض مزركش وخفيف، وكان يمنع علينا تشغيله إلا إذا أمر والدي بذلك. نزعت لويزة عنه ذلك الإزار وشغلته. لم يكن حينها التردد يمسك إلا بالقنوات الإسبانية والجزائرية، والقناة المغربية الوحيدة آنذاك. كان أبي يحب مشاهدة الأخبار على القناة المغربية، خاصة عندما تبث خطابًا للملك. فقد كان والدي معجبًا بشخصيته، وكان يحدثنا دائمًا عن جانبه الخفي الذي يسحر الآخرين. أما والدتي فكانت تحبه منذ أن كان أميرًا صغيرًا، وظلت تلقبه بمولاي الحسن ولد السلطان سيدي محمد حتى بعد أن أصبح ملكًا.

ذلك اليوم بدا أبي متوترًا، وبعد أن استجمع همته، أخبرنا أن الأحداث التي وقعت مؤخرًا بالحسيمة لا تبشر بالخير وعلينا أن نحتاط، وأن ندخل إلى المنزل مبكرًا، وأنه علينا أيضًا مراقبة أخي صالح، الذي لولا علاقة أبي

ببعض رجال السلطة لاختفى، عندما خرج مع بعض التلاميذ في مظاهرة مؤخرًا للاحتجاج على سجن بعض التلاميذ من الحسيمة، الذين احتجوا وثاروا بسبب الأوضاع الانتقالية الصعبة التي كانت تعيشها البلاد. كان أخي صالح متشبعًا بالأفكار الثورية والاشتراكية. كان أحمد يشجعه على الخروج والمشاركة في المظاهرات.

بعد صمت ثقيل، بدأت نشرة الأخبار معلنة عن بث خطاب للملك الحسن الثاني، بعدها مباشرة، ظهر الملك بأناقته المعهودة وكريزماه القوية بملامح غاضبة، وحرص حتى قبل أن يجلس على الكرسي لإلقاء خطابه على أن يبدو متشنجًا، وكأنه يفصح عن أن ما سيقوله لن يروق الجهات المعنية به. ثم جلس واستهل على غير عادته بجملة لا تعكس اللباقة المعتادة في خطاباته، التي كان يحرص والدي على أن نشاهدها معه، فقال:

– السكين وصل للعظم!.. قبل أن يسترسل بالدارجة، صابًّا جام غضبه على من شاركوا في التظاهرات الأخيرة وزاد بنبرة أكثر حدة:

– شافوها في وجهي.. سمعوها فكلامي.. ومن الرنة من الصوت نتاعي.. واش المغاربة رجعو خفاف.. رجعتو دراري! وصلنا لهاد الحد! بواسطة إما أطفال أو الأوباش.. الأوباش في الناظور، الحسيمة، تطوان، القصر الكبير.. الأوباش العاطلين إللي عايشين بالتهريب والسرقة.. واستعملوا في مراكش كما هو الشأن عند جميع المشاغبين.. استعملوا

الدراري الصغار هم الأولين.. استعملوهم في المظاهرات! إيوا سيدي أنا كنقول لكم دوك الأوباش مشاوا للحبس.. والدراري خاصهم يعرفوا هاد الطلبة والتلاميذ راهم من أجلهم باش غلات المعيشة.. وكنقول لهاد الدراري الصغار ما بقيينش يعاودوا يتهازحوا معانا.. راه الأمر تعطا باش حتى هوما يجري عليهم ما جرى على الكبار.

عم الصمت، ولم يعد يسمع إلا صوت الملك وصوت ارتشاف أختي لويزة لكأس من الماء، فأمرها والدي بعصبية مفرطة أن تقطع أنفاسها، فتسمرنا جميعًا في أماكننا لنكمل الإنصات إلى الخطاب. وقبل أن يكمل الملك خطابه، سمعنا دقات جرس الباب المتتالية، وكأن أحدهم يدق على الدفوف ليعلن عن حرب ما أو انتفاضة ما. خرج أبي مسرعًا لفتح الباب، فوجد أحد أصدقاء صالح يخبره بأن رجال الشرطة "المتخفيين" قد أمسكوا بصالح، وبعض من رفاقه خلال المظاهرة. هرع أبي إلى سيارته، أما والدتي فبقيت مشدوهة، ممزوجة بكل مشاعر الخيبة والصدمة والخوف والهلع. فتسمرت في مكانها. بينما أسرعت أنا وشقيقتي إلى النافذة، التي تحولت في ذلك اليوم من نافذة للحياة إلى نافذة للموت. كانت هناك حركة غريبة توحي بأن كل شيء على ما يرام، لكن ما من شيء على ما يرام. الشارع كاليتيم، إلا من بعض أصوات أحذية تشي بأن منتعليها دخلاء على حيّنا. نوافذ المنازل مغلقة، وكأنها منازل مهجورة، ولولا عويل النساء وصراخ الأطفال وهم يبكون، لخيل إلينا أنها كذلك. سيارات تسير في اتجاهات معاكسة. الشارع الطويل تحول إلى ملتقى طرق. العساكر على أبواب

الإعدادية، يحملون بندقياتهم، ويحملون الأسى على وجوههم. دهشت لما رأيت، ولم أفكر حينها إلا في أخي صالح وأحمد. أحسست أن الدم تجمد في عروقي وأن الدموع سجنت في أجفاني. فجأة سمعت أحدهم في الشارع يصيح.

- أغلقوا النوافذ..

لم أكترث لما قاله، بل ولم أفهم ما قاله. فجأة سمعت دوي رصاص، لم يكن صوتًا للرصاص بل إنني رأيته. خيل إليَّ أن ذاكرتي تراوغني في إعادة أحد مشاهد الأفلام الهندية، التي كنت أذهب لمشاهدتها عندما كنت طفلة مع والدي بسينما إلموندو. خيم الليل على حيّنا، لم يعد أبي، ولم يعد ريح لصالح، ولا أثر لأحمد. بقينا مستيقظات، على نواح أمي..

- " أصالحينو، أدتساينو"! يا بني يا كبدي!

بعد منتصف الليل، سمعنا صوت المفتاح يدور في فوهة الباب، إنه والدي، وفي لهفة هرعنا لرؤيته، ولرؤية صالح، لكنه عاد بمفرده، لم ينبس بكلمة. ذهبت أمي وراءه تتوسله وتستعطفه بدموعها أن يخبرها عن مكان صالح، لكنه بقي صامتًا، ثم نبس بكلمة واحدة تلك الليلة:

- "صالح يروح"! صالح ضاع!

الفصل الثاني

أزاحت سوار عينيها عن تلك النجوم المتناثرة في سماء ذكرياتها. هي في تلك الليلة بالضبط، كانت في حاجة إلى منطق جمال هي من تضع له إطاره، وليس غيرها. لمست في نفسها حاجتها كإنسان، إلى حرية متناهية ولا متناهية، وإلى جمال فوضوي مجنون غير مقيد بأصفاد قصص الماضي، يحملها من قاع التقاليد المزدحم إلى زبد الحرية وأراضي الجمال الفسيح. وتساءلت كيف يمكن لشيطان عفيف أن يقبع في أعماق الأرض؟ وكيف لملاك خبيث أن يرتمي في أحضان السماء؟

جارت سوار على نفسها كثيرًا تلك الليلة بأسئلة لم تدر ما الداعي إليها وما الجدوى منها. فكرت في أن تشغل حاسوبها الشخصي وأن تسمع بعض الموسيقى، علها تؤنس وحدتها، ولعلها تتعافى من أسئلتها التي تداري بها ظلمة ليلها، وتحادث بها قلبها الذي يأبى أن ينام. اعترتها

بعد ذلك رغبة ملحة في تدخين سيجارة. بحثت عن علبة السجائر بلهفة ممزوجة بتعنت خفي. بحثت في كل الأدراج ولم تجدها، اتكأت على ركبتيها لتبحث تحت السرير، فوجدتها هناك. أشعلت سيجارتها الأولى، ودخنت النفس الأول بنشوة داعرة. فالنفس الأول كنظرة العشاق الأولى، وكصرخة الطفل الأولى التي تبدأ منها الحياة. كانت تدرك أن النفس الأول للنشوة، والثاني للمتعة، أما الثالث فللانتشاء، أما هي فأرادت أن تكون امرأة في كل تلك الحالات. أمسكت السيجارة بين أنامل يدها اليسرى برفق شديد، كما تمسك عروس في ليلة زفافها بباقة ورد، ترمي بها في آخر حفلة الزفاف لفتاة أخرى تلتقطها، كي تلتحق بصفوف الملتقطات للرجال. لكن سوار كانت عروسًا من نوع آخر في تلك الليلة، عروسًا تزف وحدتها وسنينها الأربعين إلى علبة سجائر، تدخنها بنهم وشراهة وكأنها آخر علبة سجائر على وجه الأرض. ولأن مراكب أفكارها مزدحمة، تملكتها رغبة جامحة في إحراقها، لتضرم النار في أسئلتها التي اقتحمت وحدتها دونما استئذان منها. جلست سوار على كرسي مكتبها تحملق إلى خلفية شاشة حاسوبها، كما تحملق عيون رجل إلى جسد امرأة، تدافع عن حق جسدها في الوجود، وكأن عيونها تتحداه قائلة، ها أنا ذا لكنك لن تحصل على جسدي رغمًا عني. تنبهت سوار إلى عقارب الساعة الحائطية الزخرفية، المعلقة على الجدار، والتي لم تكن مجرد أداة لتعرف منها الوقت، بل قطعة ديكور أنيقة، تعكس أناقة صاحبة الغرفة في سفور تام. كانت الأناقة أسلوبها في العيش. فالأناقة

أسلوب حياة. وفجأة بدأت نبضات قلبها تتناغم بانسجام مع حركات عقارب الساعة، وكأن بينهما تواطؤ ما. فتواطؤ القلب مع الزمن يعزف سمفونية الحياة التي لم يؤلف الإنسان ألحانها، لكن الحياة قد تمنح لكل إنسان فرصة لإعادة توزيع ألحان السمفونية، أو حتى تغييرها وتأليفها من جديد، إذا كان المرء منا قناصًا للزمن. المشكلة أن سوار استسلمت للزمن رغم قدرتها على قنصه، لأنها تظن أن الزمن لم يعد طريدة سهلة على امرأة في سن الأربعين. وصلت إلى قناعة أن الحياة كامرأة لعوب تتقن لعبة الإغواء، وبمجرد ما إن توقع ضحيتها في شراكها تدير لك ظهرها بخفة ودلال. تذكرت حينها جدتها حينما كانت تقول لها:

– لا ترضخي للزمن فغالبًا ما تأتينا الأشياء الجميلة في غير موعدها! ولكن على الأقل نأمل أنها ستأتي..

كانت تتذكر تلك الجملة، وتتذكر كيف كانت تعيدها في همس كلما سمعت والدتها تردد تلك الجملة التي أصبحت مألوفة لديها..

– أصالح إينو.. لو كنت أعرف أنك ميت لارتحت!

لقد مرت سنة ونصف على اختفاء أخي. عام ونصف من الدموع والألم والحداد. نبكي دموعًا جفت هي الأخرى من الألم. في ذلك المساء نفسه، جلست والدتي كالعادة في فناء البيت، بين أكوام من الأمتعة والأواني، وهي متلفعة بدموع حارقة. كانت الأفكار وآلام الحزن والهم قد استوطنت وجهها، واحتلت بريق عينيها. وكانت ضفائر

شعرها الباهت، التي لم تبقِ سوى على بعض الحناء، تنطق بذات نفسها، وتقول:

– اجتروا مزيدًا من الألم فلا سعادة لكم بعد اليوم..

وكان وجهها الشاحب والنحيل، الذي زادت من إبراز نحوله الأوشام، تشير إلى ما عانته صاحبته من حزن وألم. التفتت إليَّ، لعلها تستجمع قواها من ابتسامة كنت أحرص دائمًا على رسمها أمامها، مع أني أعلم مسبقًا ما ستقوله لي بعد ذلك، وما سأجيبها به..

– لو كنت أعرف أنه ميت لارتحت!

– غالبًا ما تأتينا الأشياء الجميلة في غير موعدها! لكن على الأقل نأمل أنها ستأتي..

هكذا أصبحنا نؤنس أنفسنا داخل ذلك البيت الكبير، الذي أصبح يردد كل كلامنا بصدى مبهم وغير مفهوم، صدى لا يردد نفس الكلام، إنما يئن ويشكي من وحدتنا وآلامنا. حتى تلك النافذة الزرقاء التي كانت تبدو لي كنافذة على أحلامي أطل منها كلما اشتد الحنين، لم تعد كذلك، لونها شحب، وشقوقها سكنت بها غبار الذاكرة. فجأة سمعت طرقًا قويًّا على الباب. لقد مر وقت طويل لم نعد نسمع فيه طرقات الباب كالمعتاد، حيث كانت والدتي تقيم حفل الشاي كل مساء مع زوجات وجهاء الحي. لقد تغير كل شيء. هرعت والدتي بسرعة لفتح الباب، بينما كنت

واقفة خلفها أسقي بعض الأزهار، فجأة توقفت عن ذلك، واقتربت منها أترقب الطارق. كنت مع كل طرقة غريبة أترقب الأمل، أمل العودة إلى الماضي القريب. وعندما فتحت والدتي الباب، وجدت خالتي خديجة بابتسامة لم نرها منذ زمن بعيد. هي الأخرى كانت قد اختفت عن الأنظار، ولم تعد تزورنا كما في السابق. توقفت والدتي عن الحراك، أسقطت أنا ما بيدي وتسمرت، لم تعد تسعفني قدماي على الوقوف أو التقدم، ابتسامة والدة أحمد كانت لها إجابة واحدة طالما انتظرتها، لكن حواسي لم تستطع أن تساعدني على إظهار ردة فعل واضحة، خوفًا من الخيبة والصدمة. كذلك بقيت والدتي مبهمة شاردة البال، حتى ارتمت في حضنها خديجة وخلخلت مشاعرها، حين قالت..

- لقد عاد أحمد!

جملة كان صداها يرن عبر حجرات قلبي، ولا زال. لم أصدق ما سمعته أذناي، حتى رأيت أحمد يظهر بآخر الشارع، ويقف أمامنا بابتسامة كدت أنسى حروفها، فبقيت متسمرة أتابعه كمسمار صدئ. تملكتني مشاعر متناقضة، لهفة وشوق، شفقة وكره، حزن وفرح. لم أكن أعرف ما الذي يمكنني فعله، لم أعش تلك اللحظة من قبل. كل ذلك الإعصار من المشاعر تحول إلى جليد، لم تذبه إلا تلك الإشراقة والفرحة، التي بدت على وجه أمي حين التفتت إليَّ. استجمعت شجاعتي وثقتي بنفسي من فرحتها وفرحة خديجة. كانت فرحتي تضاهي فرحتيهما معًا. حينها لم

أكن أحتاج سوى إلى بقعة أرض صغيرة تحمل خطواتي إليه. ها أنا أجري مندفعة مسرعة نحوه. ها أنا في ذمة الشوق أستجيب لنشوة انتظاري. كانت لحظة من انفلات العشق تغوص في أناي، وتأخذني صوب ناصية الحلم، تبعثرني أشواقه على حدود الاكتفاء، وهو يفتح ذراعيه لي ليضمني. فاغرورقت عيناي وهمت دموعي التي خذلتني وتساقطت، كأنها مطر منهمر، أنبت أشجارًا لا تزهر، لتبلغه أن الربيع من دونه قد تأخر ولم يأتِ. لقد بقي متسمرًا من وراء والدته، كأن تلك البقعة الصغيرة من الأرض لم تكن لتتسع لخطواته أيضًا. فأزاحت والدتي خديجة من طريقها وخرجت إلى الباب بثوبها المنزلي، ونسيت أن ردة فعلها هذه قد يكون ثمنها هو الطلاق إن رآها والدي كذلك، التفتت تتفحص الشارع، ثم تراجعت وبصوت متقطع صاحت..

- أين ولدي صالح!؟

وقع هذه الكلمة عليَّ كان صعبًا، حين عم من بعده الصمت والسكون وانتشرت الرهبة. كانت رائحة موت أخي صالح تنبعث من تلابيب قميص أحمد. لكن رائحة الموت لا تأتي دومًا لتحمل الموت، بل لتحمل شبهة الموت. لم يكسر ذلك الصمت إلا طأطأة رأس أحمد، الذي تساقطت معه كل أحلامي التي بالكاد بدأت أشيدها، وكأنها جناحي غراب تلوحان من السحاب عند اقتراب شروق الشمس. استفاقت أمي من صدمتها وأغلقت الباب في وجه خديجة، وأخفت عني وجه أحمد،

الذي بالكاد بدأت أتفحص ملامحه. بعدها وجهت نظراتها الحادة إليَّ، نظرات أم منكسرة ومغبونة، مقهورة من الحيرة على اختفاء ابنها. كانت مثل لبؤة التهمت شبلها لتتسكع في عرين أسد آخر. أحست أنها مسؤولة عن مصير أخي صالح، وأنها هي من دفعت به إلى أن يكون فريسة الاختفاء بشكل من أشكال الموت غير المعلن.

في طريقنا القصيرة للعودة من الباب إلى الباحة، قبضت على يدي، وكأنما ملك الموت يجثم على أنفاسي في صمت رهيب. كانت لا تسمع إلا خطواتنا في الممر الكئيب. دخلنا إلى الباحة وبحركة نصف دائرية تجاهي، التفتت وقالت:

– من اليوم لا أريد من إحداكن أن تفتح شبابيك المنزل.. أو أن تخرج إلى أي مكان.. ومن اليوم أعلن عن الظلام فسحة في هذا البيت.. واخبري شقيقتيك بهذا..

سألت نفسي إن سألني أحدهم حينها ماذا أردت أن أكون غير نفسي؟ لأجبت أنني لا أريد أن أكون سوى أمي. لأنها بدت لي أنها فهمت كل شيء عن الحياة في ذلك اليوم.

ذهبت إلى غرفتي لأغير ثيابي، تمنيت لو غيرت معها اسمي وهويتي ومشاعري نحو أحمد، لكني عاجزة عن فعل ذلك، ولا أستطيع، لدي شجاعة مؤجلة، وأحلام مؤجلة، وموت أخ مؤجل. أدركت حينها أن أحمد كالنبع الذي جف ماؤه، إلا من بعض قطرات في القاع تتهادى بين

الأحجار الصماء، فهل أغامر بارتشاف بعض هذه القطرات معرضة روحي لضجيج الأحجار؟ وأنا في خضم صراعي مع ضجيج الروح، عاد والدي باكرًا على غير عادته التي ألفناها. لقد عودنا بعد غياب أخي صالح ألا نراه إلا يوم الجمعة على مائدة الغداء، التي كانت عبارة عن مأتم ترثي فيه والدتي غياب صالح. لكن تلك الليلة أحدث ضجة كبيرة وهو يفتح الباب، فخرج الكل من غرفته، وتسابقنا إلى الباحة في ذهول تام. كان رجوع أحمد قد أحيا فينا أمل عودة أخي صالح. لكن وجه أبي كان ينذر بغضب شديد. هول مفاجأته وهو يرانا نستقبله بالباحة تحت ظلمة الليل الحالك، أنسانا ما نحن عليه. تبادلت النظرات مع شقيقتي، ثم تراجعنا ببطء، بينما والدتي بقيت متسمرة في مكانها تتفحص وجه والدي، الذي أشاح بنظره عن وجوه الحاضرين، حتى حملق إليَّ بنظرة استفزاز واستهزاء. لم أدرِ ما كانت تحمله بين طياتها. تقدم إليَّ بخطوات ثابتة، كانت كل خطوة منها يهتز لها كياني. تقاطرت كل التساؤلات أمامي، بينما أنا كنت أبحث بينها عن إجابات لم أعلم مغزاها. وزاد ارتباكي حين أشار بيده إلى شقيقتيّ بالانصراف، وعيناه لا تزالان تحملقان إليَّ. أردت حينها أن أتقدم لأقبل يده كعادتي، فلم أستطع، كانت خطواته ونظراته تفصح عن زئير أسد غاضب، يسمعه كل الجيران، كأنه يعلن عن منطقة نفوذه وسلطته، فانزويت داخل جسدي الذي لم يعد يحملني، وخصوصًا عندما سمعت الكلمة الأولى التي صاحبت ذلك الزئير..

– أحمد.. ألم أقل لك أن تقطعي صلتك نهائيًّا بعائلة ذلك الملحد الكافر؟!

التفتُّ إلى والدتي لعلها تنجدني من غضبه، الذي لم أحسب له حسابًا في ذلك اليوم، ولم أتوقعه بتاتًا. بالكاد بدأت أستنشق الهواء الذي نسيت طعمه من يوم غياب أخي صالح وأحمد. لكن والدتي تراجعت قليلًا، معبرة عن استسلامها وخضوعها، حينها أدركت أن عليَّ أن أواجه الأمر، أو أن أستسلم كما فعلت والدتي. استجمعت كل قواي، كنت مدركة أنني لم أفعل شيئًا يغضبه، وأم أحمد هي من زارتنا لتخبرنا برجوع ابنها. كل تلك الكلمات جالت في خاطري بين خطوتين كانتا كافيتين ليقترب مني والدي ويصفعني بقوة على خدي..

– ذلك الكافر هو من كان السبب في ضياع ابني صالح! من اليوم لا أريد من إحداكن أن تفتح شبابيك المنزل.. أو أن تخرج إلى أي مكان دون علمي وأخذ إذن مني..

خيل إليَّ أنني أعيش لحظة عشتها من قبل. هذا الكلام سبق لي أن سمعته. حاولت أن أتذكر فلم أستطع، كان رأسي قد وصل إلى الأرض التي كنت أقف عليها بقدمين مرتعدتين، وما سمعته حينها هو صوت ارتطام جمجمتي، الذي بدأ يرن داخل أذنيّ بطنين متصل، كان صوته كصوت صفير قطار لا وجهة له. لكني شعرت وكأني أطير بعدها، لم أقوَ على فتح عيني، حتى وأنني حاولت مرارًا، فاستسلمت لذلك الكابوس

الذي نقلني إلى عالم أسود لم أزره من قبل، شعرت أنني فيه فريسة لذئاب نهمة، تعوي وتجري ورائي، ذئاب لم أرَ مثلها في حياتي، كانت تشبه الأبقار في حجمها، لكن وجهها كان يشبه الإنسان، وعندما سقطت اقتربت مني وبدأت تنهش في لحمي، وأنا أتابعها في صمت، لم أقوَ على الصراخ، ولم أجد أثرًا للدماء، فاستجمعت قواي وبسطت يدي إلى فم أحد الذئاب وخطفت منها قطعة من جسدي، وصرخت حينها بأعلى صوتي..

- ابتعدوا عني! اتركوا جسدي..

فشعرت بيد تخنق أنفاسي، وهمس بطيء يتردد من وراء أذني..

- سوار انهضي يا ابنتي هل أنت بخير!؟

انتفضت وفتحت عيني، فوجدت نفسي مرمية على فراشي بين أمي وشقيقتي، حاولت أن أستفسرهن عما وقع، فأشارت إليَّ أختي كريمة بيدها معلنة أنها ستخبرني في الغد، ثم قبلتني أختي الصغرى وانصرفن ببطء وحذر، بعدما أغلقن الباب وراءهن. وجدت نفسي غريبة تائهة داخل غرفة ألفتها، إلى زمن قصير كانت تمثل لي مملكة، بنيت جدرانها بطوب من حب وشوق، لم أضع لها حدودًا ولا أسوارًا غير صمامات قلبي، التي كانت تحيط بكل جوانبها، وعينت على رأسها حبيبا غدر بي، وتركني أواجه إعصار تمرد الزمان لوحدي. قبل غياب أخي صالح، كانت الغرفة تغدق عليَّ بكل الأحلام، كان كل شبر منها له ذكرى خاصة لديَّ أزرع فيه أمنياتي، وأغدق عليه من المطر دمعًا صافيًا كل ليلة منتظرة

أن يأتي ذلك الربيع، نعم ذلك الربيع الذي طالما حلمت به، ولم يأتِ، إنما سبقه الخريف حين اختفى أحمد وصالح، وسبقه حتى الصيف عندما احترقت أوصالي بين الفرح والقرح. ظهر أحمد ولم يظهر صالح، تأخر الربيع وسبقه الخريف مرة ثانية. وها هي غرفتي تمطر غيمًا لونه كلون السواد وطعمه كطعم المرار. طالت تلك الليلة وسبقتها كل الليالي، لم تعد تريد أن تفارقني، انتظرت شروق الشمس بصبر أداريه، فأبت أن تأتي، كانت خائفة مني ومما ستحمله لي من أخبار، استجمعت قواي التي صابرت وكابدت معي طوال تلك الليلة، وذهبت نحو النافذة الوحيدة بالغرفة، والتي لم تكن تطل سوى على الباحة، لعلي أستعطف شمسي لتنير ظلمتي، ترددت في فتحها، وإذا بي أسمع صوت والدتي تتهامس مع والدي كعادتها، فهي لم تكن تتجرأ على محادثته إلا عند خروجه إلى الممر..

– البارحة أتى عندي والد أحمد رفقة ابنه.. وبدون خجل طلب مني سوار للزواج!

– ألم يكفهم ما فعلوه بابني صالح!؟

– بغض النظر عن ذلك.. فذلك الملحد يدعو إلى الفتنة والكفر!

فتحت شق النافذة ببطء، فوجدت الشمس قد تكبدت السماء، ورأيت والدي يغادر الفناء، كانت خطواته تسمع من بعيد، وكل خطوة

كان يخطوها نحو باب المنزل، كنت أرى أحلامي تتدحرج معها نحو الخارج متبعثرة، حتى سمعت صوت إغلاق الباب يتردد صداه داخل قلبي، ظننت أن دقات قلبي ستخونني وتتوقف، فأحسست بخفقانها يبتعد، وإذ بوالدتي تفاجئني وتفتح الباب..

– من اليوم لن تذهبي إلى المستوصف بمفردك.. وسأتكفل أنا باصطحابك إلى هناك كل يوم..

لقد انتظرت تلك الليالي التي مرت في الليلة الماضية علني أجد وقتًا أسترقه بعد خروجي من المستوصف، وقتًا أكون فيه سيدة نفسي وأذهب لمقابلة أحمد، ولكن والدتي تخنقني بخوفها وتطوقني بحنانها الذي تحاول أن تداريه عني. ترددت في الخروج أولًا، ثم قررت أن أجاريهم لعلي أجد مخرجًا أو فكرة بين ثنايا ذاكرتي الصغيرة، التي لم تستجمع من تجارب الحياة شيئًا. فقررت البحث في حكايات جدتي، لعلني أجد فيها قصة تشبه قصتي، وأستنبط منها الحيل التي كانت جدتي تمتعنا بها. وإذ بي أتذكر تلك الجملة المعهودة التي كانت تستبق إليَّ، وأنا أفتش بين تلك الحكايات التي لم أشأ أن أستمع إليها. كنت أبحث عن مخرج وليس عن حكمة جاهزة تزيدني ارتباكًا وخضوعًا..

– غالبًا ما تأتينا الأشياء الجميلة في غير موعدها!

رفضت وترددت ثم خارت قواي، وارتميت على حافة السرير.

أغلقت أذني حتى لا أستمع إلى بقية كلام جدتي، فبدأ الكلام يتردد بصدى ثقيل..

– غالبًا ما تأتينا الأشياء الجميلة في غير موعدها! غالبًا ما تأتينا الأشياء الجميلة في غير موعدها!

أدركت حينها أن جدتي تريد أن تحدثني عن قصة لم تحكها لي، فاستسلمت لصدى كلامها، بعد أن قاطعتها..

– ولماذا تأتينا الأشياء الجميلة في غير موعدها؟ وما الحكمة في أن تأتينا في غير وقتها؟ ما الضرر إن لم يختف أخي صالح؟ وما الضرر إن تزوجت ممن أحبه وتملك روحي؟.. أفي هذا ضرر للقدر؟.. أم ضرر لأشخاص يستمع لهم القدر أكثر منا!.. قدر أبي الذي لا يطيق أفكار أحمد.. أم قدر أمي التي تريدني أن أتزوج بأبناء عائلتها..

تبسم طيف جدتي وقالت وهي لم تنبس بكلمة..

– ولكن على الأقل نأمل أنها ستأتي!..

– وإن لم تأتِ يا جدتي؟..

التفتت إليَّ والدتي التي كانت تسير إلى جانبي مرتدية جلبابها الرمادي الفضفاض بالقب الشمالي واللثام، بدت لي كأنها نسيت كيف تمشي فهي لم تخرج منذ زمن طويل، واستفسرتني عما قلته وهي تحاول أن تداري توترها. فطنت لنفسي أنني كنت أفكر بصوت عالٍ، فقررت حينها التزام

الصمت. كنت أخاف أن تكتشف ما يجول بخاطري، فأصبح عرضة لسطوة مخاوفها. وصلنا إلى باب المستوصف الإسباني، فتركتني أتقدم وحيدة، وبقيت تراقبني حتى دخلت. أغلقت الباب ببطء كنت أنتظر ذهابها، لأنتفض وأصرخ، لأتمرد وأقوم بعصيان القدر، لأحرّر أحلامي، كنت خائفة ومترددة، وفجأة وضعت إحدى الممرضات الراهبات يدها على كتفي، وبصوت هادئ بادرتني بالاطمئنان على حالتي..

– تبدين على غير عادتك! ما سبب قلقك؟

طردت شرودي واسترجعت ذاكرتي ثم هرولت نحو الداخل. وجدت كل الفتيات المتدربات على التمريض من عمري منهمكات في تعقيم بعض الأدوات الطبية، وأخذ بعض الأدوية للطبيبة الراهبة التي كانت توزعها على المرضى الفقراء الذين لا يستطيعون شراءها، غير مباليات بحضوري، يتهامسن فيما بينهن، فرحات. كانت تصلني ضحكاتهن ووشوشتهن متقطعة وبعيدة، وكأن القدر اصطفاني لوحدي لأكون فدية وقربانًا لهن. استجمعت قواي واقتربت من خزانة تبديل الملابس. عاودني ذلك الشرود، بدأت أفكر في مخرج وأنا يقظة أتتبع من حولي حتى لا ينكشف أمري. كنت متأكدة أنني على مقربة من مصيري. فالإحساس لا يخون. كنت متأكدة أنني على مقربة من قرار يغير اتجاه رياح سفينتي. ذلك الإحساس راودني كثيرًا وأنا في خضم شرودي، حاولت أن أتقصى قدري بين ضلوعي وبين مجاري دماء قلبي، فلم

أستطع. كانت الأفكار لا تأتي فرادى، وإنما تأتيني بأضدادها. أفكر في حبي لأحمد، أجد أمامي حب أمي، أفكر بحنان أحمد أجد أمامي دفء عائلتي. حينها تذكرت كلام جدتي..

– إذا استطعتِ أن تعثري على طريق خالٍ من المعوقات.. فهو غالبًا لا يؤدي إلى أي مكان..

حاولت أن أستفسرها عن سياقها، فلم تجبني. كانت غاضبة من ترددي. كانت تريد أن تتركني آخذ القرار لوحدي، فهي حياتي كما كانت تقول. لم أكن أفهمها حينها، كنت لا أزال طفلة صغيرة، والحياة بالنسبة لي هي حضن العائلة. حتى عندما ماتت ظننت أن الحياة ستتوقف بغيابها، وما هي إلا أيام حتى دارت دواليب الزمن بدونها. فكرت واحترت، فقررت أن أنتفض وأذهب عند أحمد وأخبره بحبي له. هو يعلم بحبي له، ولكن سأصرح له بأنني مستعدة لأضع شراع مصيري على ظهر سفينته، لعل الرياح هذه المرة ترسو بنا على شاطئ بدون رمل، على شاطئ تكسوه الحرية والحب. قمت مذعورة واتجهت نحو باب المستوصف، غير مبالية بحب أمي ودفء عائلتي وابتسامة شقيقتي. كنت أرى وجه أخي صالح يناديني بصوت أحمد. فتحت الباب، فوجدت الطبيبة الراهبة أمامي، تراجعت قليلًا خوفًا من أن تخبر والدتي بخروجي، وإذا بها تطلق العنان لابتسامة زرعت في أوصالي شيئًا من الطمأنينة، فأشارت إليَّ بيدها لأتبعها إلى مكتبها. وعندما دخلنا أخبرتني بزيارة أحمد لها. فرحت، رقصت وأنا

لم أبرح مكاني، كنت شاردة أتتبع حركات شفتيها لألتقط الكلام قبل أن يخرج، كنت متلهفة لما سأسمعه منها. لم تنبس بكلمة واحدة. انتظرت طويلًا. كانت حركاتها تبدو لي بالعرض البطيء، حتى لاحت بيدها لتخرجني من شرودي وهي تمد لي برسالة طالما اشتقت إليها. تذكرت حينها كل الرسائل التي كانت معطرة برائحة طبشور أحمد. ارتميت على الرسالة وضممتها واستنشقت عطرها علني أتذكر تلك الرائحة التي كنت أمزجها بعطر أشواقي، لكنها لم تعد نفس الرائحة، تغير طعمها وشكلها. فتراجعت إلى الوراء، وهممت بفتحها، فوجدت وزنها قد تغير. كنت أعلم أنها مثقلة بكل جروح آلام العشاق، لقد سمعت ما قاله والدي لأمي بذلك الممر الكئيب. نظرت إلى الطبيبة الراهبة لعلني أستأذنها في الخروج لأنفرد بقراءتها، فقامت من مكتبها واستأذنتني هي في الخروج، لتتركني وحيدة كما فعلت جدتي. لم أكن أعلم حينها لماذا يتقن الآخرون لعبة الانسحاب في لحظة الحسم. تركتها حتى أغلقت الباب من ورائها فأبعدت الرسالة عن أنفي الذي لم يعد يتذكر تلك الرائحة. كنت أعلم أن حرية الاختيار هي شيء لا نمتلكه، ولذلك كان يجب عليَّ أن أنتهز الفرصة، فأنا وحيدة مع رسالة فيها خطوط قدري، وسوار معصم حياتي، وعليَّ إما أن ألبس ذلك السوار أو أكسره على مهد سيف الزمن. فتحت الرسالة بدون تردد، كنت أشتاق إلى الموت على ألحان القصيدة الأبدية، قصيدة العشاق، التي غالبًا ما تبدأ بكلمة حبيبتي سوار، لم أحرك شفتي وأنا أقرأ تلك الكلمة، كانت عيناي وقلبي قد تملكهما روعي، وفي

صمت تعلوه دقات قلبي بدأت أستمع لكلام أحمد، لقد قال بعد حبيبتي سوار:

أردت الكتابة لك منذ وقت طويل.. لكنني ترددت بعد تلك الاعتقالات التي عمت مدينة الناظور.. والتي سأعترف بالهزيمة أمامها.. وأصفها بأنها واحدة من تلك الجرائم الفكرية، التي تعودت جل الدكتاتوريات على استعمالها ضد كل حر جاهر بأمنياته وأمانيه.. كنت أمني النفس قبلها أن آتيك منتصرًا على الجلاد، منتصرًا على قدر طالما تمنيته أن يكون لنا وليس علينا.. كنت.. وكنت.. ولا زلت.. نعم لا زلت أقصد معبدي لأهب قلبي قربانًا لإسعادك.. أعترف بفشلي وبضعفي أمام أبيك الذي حملني مسؤولية اختفاء صالح وغيره من التلاميذ.. أعترف لك اليوم أنني سأحبك بطريقة لم أعهدها من قبل.. وأعترف أنني سأجعل حبك عنصرًا من عناصر وجودي.. من قبل أحببتك ببساطة.. ومن قبل القبل أحببت جمالك.. ومن بعد أصبحت أحب فيك الخالد والأبدي.. واليوم ها أنا أقترح أن تكوني مغامرة رائعة وأن تهربي معي لنجوب مدينة الرباط معًا..

تركت الرسالة بين يدي المرتعشتين، فتحركت شفتاي وكأنهما ستهمسان لي، فعاكساتاني وأظهرتا ابتسامة لم أرها من قبل، كانت ابتسامة كلما وقعت في ضيق أو ضنك، أخرجها لتؤنسني وتقويني على مكائد القدر. لم أنم طوال نصف الليل الأول، أبحث عنّي في ذاكرة خضرة

عيون أمي، أختلس النظر إلى حيث أنا، ألملمني وأرى نحوي، وخطاي شرود ينقر وتر روحي، أخر صريعة التردد والاحتمالات، وما بين العتمة والمدى يتهادى إليَّ ظل أحمد من هنالك، من منتهى الحلم. قلت في نفسي يكفيني منه ظله المترنح على عتبة لحظة الغرق، وأنا قاب حبين والحنين فاغر الجرح. من قال إن الحواس خمس كذب كذبًا مبينًا! أليس التمزق الذي يحدثه التردد سابعها وتاسعها؟!

دخل نصف الليل الثاني فتسللت وفتحت النافذة، تلك النافذة الوحيدة التي تربطني بالعالم الخارجي، والتي لم تعد تزاحمني عليها شقيقتي. هي الأخرى أخذ منها غياب أخي صالح حبيبًا، كانت تمني الروح بالارتباط به، فتلاشى حبها بعد تلك العاصفة التي مرت في يوم من أيام سنة 1984، وأخفت العديد من خيرة شباب المنطقة، ومن بقي منهم فضلوا ركوب قوارب الموت، وتوجهوا نحو الضفة الأخرى، ليهجروا وطنًا لم يعد كالأوطان. حتى تجارة الفيديو لم تعد مربحة في الريف، فغابت وتلاشى معها حب شقيقتي. وعندما هممت بإغلاق النافذة تلاشى ظل أحمد عندما ظهر برفقة ثلاثة من أصدقائه، لم أكن أعرف أحدًا منهم، لوح لي بإشارة كان مفادها، أن كل شيء جاهز، فجأة تذكرت حزن أمي على أخي صالح، ما عاد في صدرها ولا في صدور الأمهات، اللواتي أفجعهن اختفاء فلذات أكبادهن، متسع للحزن. أصبحت هذه الأرض تقتات على اختفاء أبنائها، الدمعة في كل عين، الحزن على جل الوجوه. كنت أود أن أكمل رثائي على صدر أمي، علني

أطفئ حيرتها وقهرها، لكنني لم أستطع. وخرجت أتسحب من جذوري، أتجرع ألم القدر وانتكاسات العبث. نزلت السلالم بحذر، فتحت الباب، فوجدت أحمد وأحد رفاقه بانتظاري في آخر الشارع. توجهت نحوهما. وبينما أسير تحت جنح الظلام، كنت أتساءل بيني وبين نفسي بخوف وتردد عن المصير الذي سألقاه، بعد أن رميت وراء ظهري عائلتي وجذوري وانتمائي، وتحديت العادات والتقاليد التي لا يمكن أن تغفر لامرأة أنها انحازت إلى الحب واختارت الهروب إليه. لقد تركت ورائي أطهر الأماكن وكبرياء الجبال، وابتسامة شقيقتي الصغرى لويزة وطيف صالح، وهمس شقائق النعمان، فالريف بوتقة الأحرار والنخوة والثوار. لا وقت لتباريح الجوى. ها هو الريف الذي أشرع صدره للعابرين يعد لقلبي الذي سكنه مقصلة. وفجأة شعرت بأن ضعفًا شديدًا قد أصاب ساقي، ولم أعد أقوى على التجديف للوصول إلى الضفة الأخرى، حيث بساتين الحب والهوى تزهو بألوان ربيع لا ينقطع، وشمس لا تغيب. ففي الطريق إليهما وتحت أغصان أشجار الليمون، بدا لي أحمد يقترب إليَّ بخطى حثيثة ومرتبكة، وكلما ازداد قربًا مني ازددت خوفًا وقلقًا وترددًا. وعندما وصلت إليه، وأمسك بيدي تنفست الصعداء، وبدأ خوفي يتدفق مع صبيب عرق يدينا، ويتلاشى شيئًا فشيئًا مع ارتعاشة أصابعنا. كانت أول مرة أقطف من زهرة حبي لمسة ليست ككل اللمسات. وضمني إليه بقوة فشعرت أن رائحة أنفاسه تعرج إلى سموات قلبي وتملأ صدري، فجأة نبس رفيقه وقال:

– أحمد أسرع لا وقت لدينا الآن!

أمسك بيدي جيدًا وهمس في أذني:

– سوار الطريق نحو الحب يبدأ بكثير من الثقة! فثقي بي ولا تخافي من شيء..

ابتسمت ابتسامة خفيفة وهمست بيني وبين نفسي بحزن خفي:

– والطريق نحو الغرق يبدأ أيضًا بكثير من الثقة في الأمواج! هكذا كانت تقول لنا جدتي.

عندما وصلنا إلى آخر الشارع، وجدنا بقية رفاق أحمد في انتظارنا في سيارة "مرسيديس" خضراء اللون، ركبت بجانب أحمد وكمال في الخلف، بينما تكفل محمود بقيادة السيارة، وكان يجلس قربه بالمقعد الأمامي نزار. عم الصمت قليلًا، حتى كسره محمود:

– الخطة ستعرف تغييرًا طفيفًا!

قال أحمد:

– ليس هذا وقت تغيير في الخطط يا محمود!

– لا بد من هذا التغيير، لأن سميرة لم تذهب بعد إلى الرباط.. ولهذا سنمر على وجدة أولًا لاصطحابها من الحي الجامعي.. وبعدها نكمل الطريق إلى الرباط..

أحسست أن أحمد انزعج من كلامه، وحتى يبدد هذا الانزعاج ضمني إليه وهمس لي..

- لا تقلقي كل شيء سيكون على ما يرام!

شعرت حينها براحة غريبة، لونها كلون الضباب، تنتشر دون أن تثقل أنفاسي، فبدأت أتلاشى معها حتى وضعت رأسي على صدر أحمد. كان الظلام حالكًا ومحمود كان يقود بسرعة قصوى. بقيت عيناي تحملقان وتراقبان الطريق حتى غفوت من غير أن أشغل فكري الشارد في بياض لم أتذوقه من قبل. يقال إن الحب لذته في عذابه، وأنا تذوقت حلاوته في قربي منه. تلك الليلة كانت أول أيام فصل ربيعي، الآن سوف نزهر معًا أنا وحبيبي، حيث بدأت ألامس أول هبات نسيم العشق. لم أصدق حتى نفسي التي بدأت تحكي لي قصصًا عن الغرام، كنت نائمة وهائمة، لكن قلبي كان مستيقظًا يسارع دقاته فرحًا، ويعلن عن أول رقصة وضع إيقاعها إصراري على كسر عجرفة القدر. وفجأة أيقظني من غفوتي صراخ صوت غليظ:

- ما الذي تفعله أيها الأحمق!؟ هل تريد أن تقتلنا؟

عمَّ صمت رهيب. لم أعلم ما جرى. نظرت إلى أحمد فبدا لي اصفرار وجهه ينير ذلك الظلام الدامس، فتنهد بعمق، وليخفي قلقه التفت إلى محمود الذي قال..

– لا تقلق فأنا أقود هذه السيارة منذ طفولتي.. إنني أعرف كيف أتعامل معها..

بعد هنيهة خاطب الكل بنبرة فيها شيء من السخرية ليبدد خوفنا:

– كل ما أتمناه ألا يتوقف قلب أبي عن النبض حينما يستيقظ ولا يجد سيارته بالقبو!

فانفجر نزار ضاحكًا، وقال محاولًا إخفاء عصبيته هو الآخر، ودون أن ينظر إلى محمود:

– المسكين سيتوقف قلبه عندما لا يفي الحزب بوعده.. لقد سمعت أن والدك وضع كل ثروته تحت أمرهم.. لا أفهم كيف يرضى والدك وغيرهم من الخونة أن يبيعوا مؤخراتهم لأحزاب الكارتون هذه!

تنفس محمود بعمق، وبقي صامتًا طوال الطريق، لم ينبس بكلمة، كان كلام نزار كالخنجر الذي قطع لسانه. إنما كمال واصل الحديث واسترسل قائلًا:

– إنها أحزاب المراحيض التي تخلت عن أداء دورها في المعارضة.. والتي هي وظيفتها بالأساس.. حيث من المفترض أن تطرح نفسها بديلًا للنظام القائم، من خلال برامج ورؤى معلنة.. لكنها تتجاهل كل هذا وتتحول إلى مجرد وسيلة لتنظيف مؤخرة النظام، الذي يلقي بها بعد ذلك في أقرب سلة مهملات..

حينها استوعبت أننا كنا سنتعرض لحادثة سير، فانتصبت بعدها وبقيت متجمدة، فأنا وسط أشخاص بالكاد أتعرف عليهم، انتبه أحمد إلى خوفي، فاعتدل في جلوسه ووضع يده اليسرى على كتفي، ووجه إليَّ الخطاب بصوت مرتفع، حتى يشركني في حديثهم..

– للأسف نجح النظام في تشكيكنا بعضنا في البعض! إلى الدرجة التي جعلت البعض يشك في كل شريف ينضم إلى الأحزاب بغية خدمة وطنه.. وللأسف الصراع على حكم البلاد أنسانا البلاد ذاتها.. فأصبحت هي آخر اهتماماتهم، وأصبحت السلطة والمناصب هي الغاية القصوى..

استمر النقاش الحاد بينهم حول السياسة والنظام الحاكم والأحزاب السياسية. لقد نجح كمال وأحمد في تبديد مخاوفنا من تلك الحادثة التي استلهمت خطورتها من وجوه الراكبين. لكن عندما بدءوا يتحدثون عن المعتقلين السياسيين الذين زج بهم "المخزن" داخل سجونه، شعرت حينها بغصة كبيرة تخنقني. لقد تذكرت أخي صالح، ومعه تذكرت أمي وأبي، وجبال الريف وسماءه، وخيرة شبابه القابعين في السجون. تذكرت حتى حزن والدتي الذي وجدته يثقل على أنفاسي. لم تعد رائحة أحمد صافية عليلة تتسرب إليَّ، لقد امتزجت برائحة أحزان عائلتي واختفاء أخي صالح. فاعترتني رغبة قوية في أن أصرخ في وجوههم، وأن أقول لهم إنكم مجرد أوغاد، تقتاتون على ظلال اختفاء الآخرين، فيما تتقمصون أدوار الحاضرين في هذه اللعبة القذرة. وأن أنزل من تلك السيارة

الخضراء، وبعدها أعود أدراجي إلى مرفئي، حيث ينتظرني حضن أمي الدافئ، كدفء أشعة شمس الريف، لكني لم أستطع، فبمجرد أن رفعت بصري نحو أحمد، حتى تلاشت عزيمتي. كانت ابتسامته تشفي غليلي وتضمد أحزاني. فأعدت أدراج بصري نحوي، وتذكرت أنني أنا من خط قدري، وأحسست أنني بدأت أفهم حكايات جدتي، فهي حياتي كما كانت تقول لي. أما والدتي فهي تشبه كل الأمهات، اللواتي استسلمن لقدر يخطه لهن آخرون، فلتتحمل أحزانها واختفاء من تحبهم. بدأت أفهم أن كل القرارات المصيرية تأتي بطعم مر، لقد بدأت أتذوق من بعض أطباقها.

كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء، بين تلك الغيوم السوداء، عندما كنا على مشارف الوصول إلى مدينة وجدة، شعرت أن ذراعي اليمنى قد تصلبت، لأن الليل كله أغفو عليها. ألقيت نظرة من زجاج نافذة السيارة، فبدت لي السماء وكأنها تمتزج بالأرض بواسطة المطر المنهمر ببطء ودون انقطاع. ذلك الإيقاع بدأ يحملني إلى ذكريات نسيتها منذ أن لامست يد أحمد المرتعشة، فتذكرت والدتي من جديد، التي كانت دموعها تهطل كهذا المطر. بقيت شاردة لكن أحمد قطع خلوتي بصوته الدافئ، قبل أن يستفيق وجع الفراق من غفوته..

– لقد وصلنا إلى وجدة يا سوار! سنذهب لتناول وجبة الإفطار أولًا، ومن ثم نتوجه إلى الحي الجامعي لنصطحب سميرة معنا..

كانت أول مرة أزور فيها مدينة وجدة، فلم أسمع عن هذه المدينة إلا من خلال قصص جدتي، التي أخبرتني أنها هاجرت رفقة عائلتها من الريف إلى مدينة وجدة، ومن ثم إلى مدينة تلمسان بالجزائر، من أجل البحث عن عمل تسد به رمق الجوع والحاجة في سنوات الثلاثينيات، أو كما كانت تسميها هي بـ"أعوام الجوع". نهضت وتوجهنا إلى المقهى، وجلسنا في الزاوية. كان الكل شاردًا إلى زخّات المطر، الذي حجب الرؤية خارج زجاج المقهى. كان يومها الطقس باردا، وعبق الجو داخل المقهى بأنفاس رواده. لم أستطع تناول الإفطار، كانت رغبتي في الأكل قد اضمحلت. فضلت الجلوس سارحة في الغيوم، التي كانت تتلبد في السماء، وقطرات المطر تنزل في سمو. ولم أشعر حينها إلا والدموع قد ملأت عيني، لم أدرِ لماذا، ولكن حزنًا عميقًا تملكني، كان حزنًا يتصاعد مع رائحة الأرض بعد هطول المطر.

الفصل الثالث

كانت عقارب الساعة لم تتجاوز الستين دقيقة وهي في خضم تذكر كل هذه الذكريات الماضية. ابتسمت ابتسامة حنين تبحث لها عن ملجأ، حتى تداريها عن أحزانها التي تسكنها. فالحياة أحيانًا لا تعني لك أي شيء سوى أنك فيها كغريب على الرصيف شيعوه إلى الأحزان. افترضت سوار أن بإمكان جدتها أن تكون على حق، وأن الأشياء الجميلة التي تمنتها ربما قد أخلفت موعدها مع الزمن، لكن قد تتصالح مع زمانها وتأتيها الأشياء الجميلة بعد سن الأربعين. أشاحت وجهها عن عقارب تلك الساعة الحائطية، لعلها تبحث عن شيء توقف به عقارب زمانها، وها هو عقم الليل بدأ يتفحم في رحم الفجر، وسوار لم تعرف أين ذهب النوم وتركها. لم تؤاخذ النوم على غيابه، فقد اعتادت الغياب، غيابًا من نوع آخر، إنه غياب الموجودين معنا تحت سقف واحد. فعيشك وحيدًا أمر صعب، لكن الأصعب أن تعيش مع أشخاص يشعرك حضورهم

بالغياب وبالوحدة، والأكثر صعوبة أن يكون هؤلاء الأشخاص هم من كنت تحسبهم أقرب الناس إليك. أرخت سوار نفسها لوحي الموسيقى الذي فتحت باب سمائه من حاسوبها، كان وحي موسيقى ميمونت ن سلوان لا ينقطع عنها، كانت ترياقًا لتشققات ذاكرتها، التي يحدثها تفكيرها المفرط في خبايا الموت، في فسحة الليل الموسيقية تلك. بدت سوار كآثينا، إلاهة أمازيغية، تعزف في حضرتها أول نوتة موسيقية ستحفر في التاريخ. فالموسيقى تشعرنا أننا آلهة تخلق جمالًا من عالم آخر، عالم ربما قد ننتمي إليه يومًا ما، وليس مثل ذلك العالم الذي مر أمامها، يوم كانت النسمات الباردة تعبث بتلابيب فستانها القصير المرقط بزهور ملونة، وكان أحمد على الجانب الآخر يلتحف هبوب الرياح التي كان يعلو صفيرها على ضربات قلبه المتسارعة، وهو يجلس فوق الصخرة الأزلية على شاطئ الرغبة يراقب إطلالتها الخيالية، وكلما أطاحت الريح بفستانها أطاح صمت الغواية بقلبه. كانت تتقن تصويب النظرات الآسرة نحوه في تواطؤ شبه معلن. وكان حين يضمها يشعر أن الحب وحده يحترف فتح المسافات بينه وبينها، وأنه حر من أعماقه إلى درجة أنه يستطيع فك كل قيوده إلا قيد نظراتها. وفي لحظة منبثقة من التيه يسأل نفسه:

– ترى هل أنا قادر على إعلان لذة اللهفة على هذه المرأة الجميلة حتى الموت!؟..

تحل لعنة الجواب الذي كان يتقاسمه مع رفاقه في السجن، حينما كان معتقلًا سياسيًّا، في أعماقه على غفلة..

– المرأة الجميلة كالوطن الجميل يا رفاقي! قرار مؤجل!

هنا الرباط عاصمة المملكة وعاصمة حبي، هنا مع حبيبي أحمد أصبحت أرى ألوان العالم التي تظل باهتة في غيابه، كانت كل الأشياء من حولي تظل احتمالًا، إلا عشقي له هو عين اليقين. لا أنكر أن الخوف من المستقبل كان ينخرني ويشتتني، وأنني كنت أخشى من نفسي على نفسي، حينها أنظر بقلبي إليه، فاطمئن! أنا سوار العاشقة للحياة ولهذا الرجل الأسمر، ما إن أمرر يدي على حقول وجهه القمحية حتى يغدو حصادًا يكفي لسنوات.

قال لي مرة ونحن على الشاطئ، وهو يرفعني بذراعيه القويتين عاليًا ويدور بي..

– انظري بقلبك يا سوار.. وستعرفين أن كل ذرات الكون في رقصة عشق أبدية! وستعرفين أنها تتلمس العاشقين فتعرفهم..

كانت السعادة تغمرني، وأحلامي تبعث من مطالع عينيه اللتين أطيل النظر إليهما، فأرمق فيهما فصل ربيع دائم، وكأن كل الأشياء تتناغم بداخلي، فأتركها ترقص على حواف الروح، وأغمض عيني قليلًا لأرى ذاتي أوضح من كل شيء. منذ سنوات وأنا أرى أحمد غير أنني رأيته بوضوح للوهلة الأولى في ضوء هذه الأمواج العاتية، التي

تضرب الصخور على شاطئ المدينة. رأيته واقفًا أمام البحر يتأمل غروب الشمس وهو يمسك بيدي بشدة، كانت تلك الشدة التي تنبعث من يده تثير أمامي تساؤلات لم أعهدها من قبل. أيريد أن يعلن لي عن شيء من غير الحب؟ وهل ما بيننا حب؟ هل يريدني فعلًا أن أعبر معه إلى عالمه وأن ينفذ إلى عالمي؟.. كان كلحظة الغروب تطأ على أعتاب قلبه تساؤلاتي. أحكمت قبضتي على يده ووقفت أمام البحر، وعيناي تحدقان بثبات عبر الجهة الأخرى من العالم، ولم أكن أدري ماذا عليَّ أن أفعل.

لقد مكثت عند سميرة ورفيقاتها بشقة بئيسة يكترينها بحي يعقوب المنصور، لمدة ليست بالقصيرة، ريثما يتدبر أحمد شقة صغيرة نسكن فيها بعد العرس. كان أحمد قد بدأ العمل بمكتب أحد المحامين التابعين لهيئة الرباط، وكنا نلتقي بعد انتهائه من دوام العمل، فنذهب إلى البحر، الذي تبدد أمواجه ذلك الشوق الذي كان يتملكنا، وعندما يتكحل الليل بضوء النجوم والقمر، كان يعيدني أحمد إلى شقة الرفيقات، ويعود هو إلى الشقة التي كان يكتري فيها غرفة صغيرة نواحي حي العكاري مع رفاقه نزار وكمال ومحمود.

حلت ليلة العرس، التي كانت ليلة العمر بامتياز، كان الكل حاضرًا، رفاق أحمد ورفيقاته، الذين رقصوا طوال الليل على موسيقى سيد درويش ومارسيل خليفة، كانت ليلة حلم شهي رغم بساطة الحفل، إلا أنه كان باذخا بحضور من نحبهم. بعد انتهاء الحفل، وجدنا نفسينا ممددين على

السرير جنبًا إلى جنب، عاريين ومنهكين، كان الفجر قد بزغ، فسألني أحمد:

- كيف وجدت الشقة؟

- إنها جميلة يا أحمد!

بعد ليلة من الاحتفال والشهوة والنشوة نام أحمد، وبقيت أنا مستيقظة أتأمل طيفي الجسدين العاريين، الممددين على مساحات الحلم والحنين. كان جسدي كطيف طير يطير، يتثني في هذا الأفق المنحني، كنت كشمعة فجر، تمضي من عدم إلى عدم، كآخر المنارات بعد أن اقتلعتها العاصفة. أحسست أن شيئًا ما ينقصني، ربما لمسة أو ابتسامة أو ذكرى، لا أدري بالضبط ما هو. بحثت عن بصيص ضوء سقاه الفجر، رمقته بعيني ثم غفوت كغيمة تبحث لها عن سماء.

منذ تلك الليلة ونحن ندلف معًا إلى السرير، كفوفنا تحدث بعضها البعض عن شهقة فم الأصابع، حين نتلامس منذهلين ومرتبكين ومندفعين في حقل الإغواء والشهوة، تلك الشهوة التي ترخي ضفائرها حتى لغم الانتشاء. وهكذا كل ليلة، وكلما ارتعش المساء بلسع الشوق، نغرق معًا في ظلال العشق، كنت كغسق مسكون بشهوة الضوء، كنجمة ليل لا تطفئها عتمة. أما أحمد فكان يطوقني بين ذراعيه كالمنتصر في المعركة حينما يطوق فرسه، وكنت أغفو بين ذراعيه مهما كانت درجة

توتري واضطرابي، وأحيانا كنت غير قادرة على إغماض جفني طوال تلك الليالي.

ذات ليلة كنت أحاول أن أغفو وكان هو لا يزال في المدخل الأول من النوم، فقلت له:

– أريد الذهاب إلى أمي.

لم أدرِ كيف حضرت أمي بعينيها الخضراوين واقتحمت تفكيري، حتى اندفعت للنطق بذلك الطلب الذي سيثير أول زوبعة تتطاير منها بعض انجذاباتنا وتناقضاتنا الإنسانية. فانتصب في سريره ودون أن يفكر أجاب:

– إن أردت أن تذهبي عليك أن تذهبي إلى الأبد.

ثم قام وخرج من غرفة النوم إلى غرفة الجلوس الصغيرة، وهو يحمل في يده كبريته وعلبة سجائره. حينها تسرب إلى أطرافي ارتعاش لولبي، طاف بي الأرض وأعادني إلى رشدي. ما دفعني للبوح بذكريات كنت قد تناسيتها؟ أهي سلطة الذاكرة أم هو الشيء الذي كان ينقصني، وكنت أبحث عنه في كل تلك الليالي قبل أن أغفو في كل مرة؟ انتفضت، فنهضت وتبعته، كنت عارية تحت قميص أبيض وقصير، وكان وجهي جامدًا من دون تعابيره الريفية الطفولية، فقلت له بلهجة حازمة..

– لكني لا أريد الذهاب إلى الأبد!

كان هو يتفحص بعض الأوراق القديمة بين يديه، فالتفت إليَّ بعد أن أشعل سيجارته ببطء وقال:

– لن تذهبي إلى أي مكان.. أنا من سيذهب وسيرحل بعيدًا من هنا!

ثم ارتدى سرواله ومعطفه بسرعة وخرج من المدخل إلى الرواق الضيق بعد أن انتعل حذاءه وأغلق الباب الخشبي في وجهي. تبعته وفتحت الباب بحركة عنيفة، وأنا مقتنعة أنه ينوي الذهاب إلى الأبد، وأن عليَّ أن أبقيه إلى جانبي بأي ثمن. نزلت الدرج مسرعة واعترضت طريقه فتوقف، أمسكته بيده وارتميت في حضنه وأنا أرتجف من الخوف وهمست له والدمع في عيني:

– أرجوك لا تغادر..لا أريدك أن تختفي مرة أخرى..

أمسكت بيده ووضعتها فوق قلبي وأنا أتنهد بصعوبة وأضفت:

– القلب بوصلة القدر وأنت هو قدري..

بدون تفكير أيضًا، ضمني إليه وأعادني قربه إلى السرير. وفي صباح الغد استفقت وكأنني سواي، متشحة بضبابية ذاكرة مقلمة الأظافر، التي لم تعد تخدش روحي، فلم أجده بجانبي. كان التعب قد أخذ مكانه مني بعد ليلة مصالحة، امتزج فيها العشق بالذكريات، وكعادته، خرج دون أن أنتبه له. خرجت من الغرفة ألملم أطرافي المنهكة، وإذا بي أرى تلك الأوراق القديمة لا تزال على الطاولة، فتحت درج مكتب أحمد بيد، وبسطت اليد

الأخرى لأجمع تلك الأوراق وأضعها بدرج مكتبه الصغير، فشممت رائحة الطبشور التي بقيت عالقة بتلك الأوراق، فتفحصتها جيدًا، وإذا بي أجد أنها تلك الرسائل التي كنت أبعثها له حينما كان لا يزال أستاذًا بمدينة الناظور. وبلحظة عثرت على ذلك المقطع الأخير، نعم لا زلت أتذكره جيدًا وأتذكر أين كتبته:

"أرغب في أن ألتقيك، لم أعد أستطيع أن ألوك ضجر الانتظار.. أرغب في أن أتوسد هواء أنفاسك.. وأن أفترش صدرك.. لا تتأخر.. سأرسل لك الرسالة الموالية كالعادة مع أخي صالح"..

كانت الرسالة مؤرخة بتاريخ 02 يناير 1984، وكان يومها اليوم الذي سبق اختفاء أخي صالح. تذكرت أنها كانت آخر رسالة يوصلها أخي صالح لأحمد، فتملكني الحنين واغرورقت عيناي بالدموع. لقد تذكرت عيني والدتي الخضراوين الباهتتين ووجه أبي الحزين، وتذكرت معهما حسرتهما وقهرهما من الحزن على اختفاء أخي صالح، لقد تذكرت أيضا تلك النافذة الزرقاء الوحيدة التي تطل على الشارع، ومعها تذكرت كريمة ووقوفها أمام المرآة، وابتسامة لويزة المشرقة. لقد مرت سنة ونصف لم أسمع أخبارهم، ولا أدري ما الذي فعلته ظروف الحياة المتقلبة بهم.

عاد أحمد إلى المنزل ليتناول الغداء على نحو الساعة الثانية والنصف كعادته، فوجدني مستلقية في فراشي، كان يبدو على وجهي التعب والوهن، فقال لي:

- كيف حالك اليوم؟

أجبته ببرودة:

- بخير.

انقبض وجهه بشكل غريب، ووضع كوب الماء الذي كان يمسكه بيده على منضدة السرير واقترب مني.

- هل تريدين الذهاب معي مساءً إلى الحفلة؟ لقد دعاني الأستاذ نجيب المحامي وطلب مني أن أصطحبك معي!

صمتُّ لهنيهة، وفهمت أنه يريد أن يطوي صفحة ليلة البارحة، فأجبته بنبرة أقل برودة..

- كما تشاء!..

طبع قبلة على جبهتي، وبنبرة باذخة الهدوء والرقة قال لي:

- هيا انهضي وانفضي عنك هذا القلق والحزن.. وارتدي أجمل فستان سهرة لديك.. سيمر علينا كمال رفقة سميرة.. فهما الآخران مدعوان أيضًا.. سنذهب معًا..

ثم اتجه نحو دولابه وغير ملابسه بسرعة، ولم ينس أن يتجمل كعادته عندما يكون مقبلًا على حفل أو موعد عمل هام، وقبل أن يتوجه نحو الباب التفت وقال لي:

– سأعود إلى المكتب للانتهاء من بعض الملفات العالقة مع الأستاذ نجيب.. ومن ثم أعود لأصطحبك..

أغلق باب الغرفة خلفه بابتسامة راقية، وبقيت أنا للحظات مذهولة وشاردة، كأنني من فرط الحزن الخفي كومة قش تبددها وشاية الرياح. راقت لي فكرة الذهاب إلى الحفل، ونهضت بسرعة بعد أن انتبهت أنه لم يبقَ أمامي إلا ساعة ونصف لأكون جاهزة. لقد أسرفت كل وقت الزوال بعد خروجه بتفكيري في أحزان لم أضرب لها موعدًا. حاولت جاهدة قبلها أن أنتفض كما قال لي، لكني لم أستطع، لقد سيطرت عليَّ غيوم الذكريات والحنين إلى عائلتي في الريف. اقتربت من خزانة ملابسي، أفرغتها مما تحتويه، ومكثت ألبس وأخلع كل ما في حوزتي من فساتين. بعدها أخرجت عدة زينتي لأعيد لوجهي ما فقده من بريق ونضارة بسبب ذلك الحزن الخفي والحنين الثقيل. وتذكرت أنه في مثل هذه الحالات كان ينقصني الاستماع إلى موسيقى ميمونت ن سلوان، التي تغدق على مثل هذه المواقف فرحة الفخر بالانتماء إلى جبال الريف الأبية.

الفصل الرابع

استفاقت سوار من استعادة شريط ذكرياتها بعدما نفذت أغنيتها المفضلة، فعملت على تشغيل أغنية أخرى بصوت سلام الريفي، واستعادت معه بعضًا من توازنها الداخلي، الذي اختل بسبب استكمالها تلك الليلة لسن الأربعين. أربعة عقود مرت، عشر سنوات منها أمضتها في ممرات وغرف المستشفيات، بعد أن تدبر لها أحمد عملًا كممرضة بفضل معارفه وعلاقته مع رجال السلطة والسياسة، أحبت عملها كممرضة تسعف المرضى، بينما نسيت أن تسعف أحلامها المختنقة، التي تحتاج إلى تنفس اصطناعي، لتحققها في مجتمع يفتقر إلى أكسجين الأحلام. وهي تتأرجح على أرجوحة ذكريات طفولتها وشبابها، اعترضتها من جديد رغبة في التدخين، مدت يدها إلى علبة السجائر وهي جالسة على كرسي منضدتها، فوجدت بداخلها سيجارة واحدة وأخيرة لأمسيتها البئيسة. دخنت العلبة بأكملها دون أن تحس. أمسكت السيجارة الأخيرة تقلبها

وتلاعبها بين أناملها بكل إغراء، ومن ثم ترفعها إلى أنفها وتشتمها بمكر ملغوم، ترددت رغبتها كثيرًا بين الإيقاد والإخماد، وبعد مبارزة الرغبتين في داخلها، استسلمت لرغبة الإيقاد، وخصوصًا عندما حملها صوت سلام الريفي من جديد للسفر إلى المحطة التي توقفت فيها.

محطة كانت سوار فيها شابة جميلة ومشرقة، وكأنها شمس تشرق من يدي إلاهة إغريقية. كان شعرها الأسود الغجري ينساب كموج من الأحلام، وكل موجة تخيط أطراف الظمأ، وتداعب تشظي الجوع إلى الجمال.

كانت على وشك الانتهاء من وضع لمساتها الأخيرة لتكتمل زينتها، ولم يكن ينقصها سوى وضع القلادة الذهبية التي أهدتها لها جدتها قبل أن ترحل كما رحلت حكاياتها. حين رن جرس الباب، توقعته أحمد يستعجلها النزول، أمسكت قلادتها بيدها وانصاعت لرنين الجرس المتكرر، وأجلت وضع القلادة على رقبتها الناصعة البياض، وذهبت مسرعة لفتح الباب. كان كمال على الباب رفقة سميرة التي كانت في قمة أناقتها، لكنها لم تكن تضاهي سوار في جمالها. سلمت عليها سميرة، بينما بقي كمال مشدوها أمام جمال سوار، كانت تبدو له في ذلك المساء كحلم شهي، انسكب في فضاء الواقع، فصار ملاكًا وعطرًا يختزل كل النساء، كانت غصات صهيل دهشته وتيهه تطوق جسده. فجأة قالت له سميرة:

– ما بك يا كمال!؟ هل ستبقى واقفًا هكذا على الباب؟

فتدخلت سوار بخجل:

– ادخل يا كمال البيت بيتك.. سيصل أحمد قريبًا..

طلبت مني سميرة حينها الإذن للدخول إلى الحمام لترتب زينتها، كانت سميرة تعرف البيت جيدًا، فهي غالبًا ما كانت تزورني لنقل التقارير إلى أحمد التي تخص نشاطهما النضالي والسياسي. فسميرة إلى جانب نيلها شهادة الماجيستير في القانون العام، كانت إحدى المعتقلات اللواتي اعتقلن بمدينة وجدة، وكانت صديقة أحمد ورفيقته في النضال والكفاح. بقيت لوحدي في الصالة الصغيرة مع كمال، فسألته..

– هل تريد أن تشرب شيئًا؟

أجابني وهو يداري عني افتتانه بأنوثتي الطاغية..

– لا شكرًا!.. شربت شايًا مع سميرة في المقهى قبل أن نأتي..

انتبه كمال إلى القلادة التي أحملها بيدي وقال لي:

– قلادتك جميلة جدًّا!

– نعم إنها هدية عزيزة من جدتي.. أضعها في المناسبات لأزين بها عنقي..

نهض كمال من على المنضدة وتوجه إليَّ ساحبًا القلادة من يدي:

- هل تسمحين لي أن أساعدك في وضعها..

أجبته بخجل وعفوية، أداري بهما جرأته التي أربكتني:

- نعم يمكنك ذلك..

كنت قد أجلت وضعها على عنقي حتى أغتنم فرصة وضعها من طرف أحمد الذي انتظرته، لأستمتع معه بتلك اللحظة. لقد كان عندما يطوق عنقي بتلك القلادة وكأنه يطوق روحي بعطفه وحنانه، كان قد عودني على ذلك كلما أردنا الخروج للاحتفال أو للسهر، فتكون تلك اللحظة فألًا أستبشر به بداية جديدة لحب ما يلبث أن يزداد هيجانًا.

رفعت شعري الطويل، ووضع كمال القلادة حول عنقي، وتأتأ الصمت أناه، واعتصر بين كفيه ريح الشهوة، لكنه غض الرغبة لتتوارى لحظة الجنون تلك مع مخاض المجهول، وزفير الاحتراق من رغبة ممنوعة. فجأة دخلت سميرة بمرحها المعتاد وكسرت تلك اللحظة العابرة، وقالت:

- لقد تأخر أحمد!

فأجابها كمال وهو يخفي ارتباكه، وفي صدره تغلي رياح من الخجل والرغبة..

– لا بد أنه تأخر في العمل..

تعللت بجلب حقيبة يدي، وانصرفت إلى غرفة نومي. كان هروبًا من موقف لم أكن أتوقعه. في ذلك الحين وصل أحمد، وسمعته يستفسر سميرة عني والتي أجابته..

– لقد دخلت للتو إلى غرفتها..

خرجت حينها، ووقفت أمام أحمد وقلت له..

– أنا جاهزة!

كانت سيارة الأجرة الكبيرة تنتظرنا أسفل البيت. وطوال الطريق إلى الفندق حيث ستقام الحفلة، لم يتوقف أحمد وسميرة عن الحديث في الشؤون السياسية للبلاد وآخر المستجدات فيها، وبقي كمال يرمقني بخلسة من المرآة الأمامية للسيارة، ويشارك في الحديث باحتشام، حتى لا يلاحظ أحد ارتباكه، بينما فضلت السكوت طوال الطريق. نظراته كانت تثير اشمئزازي، وما أنساني ذلك الإحساس المشمئز هو مدينة الرباط حين ترتدي حلة الليل، وتكون وحيدة بشوارعها الكبيرة، أقواس أسوارها تزخر بعبق التاريخ، وهي تستحم من غبار الزائرين بندى ليالي فصل الربيع. الرباط ليلًا تنزوي إلى الانعزال، وتظهر جمالًا يخفيه النهار كله خوفًا من خطوات مرتاديها، الذين لا يكلون طوال السنة من الذهاب والإياب منها وإليها، مرتادون من كل أقطار البلاد، بتقاليدهم وزخمهم، وأحيانًا

حتى قبحهم. وبقيت طوال الطريق منغمسة في اكتشاف سر جمالها، حتى توقفت سيارة الأجرة الكبيرة أمام فندق فخم من صنف خمسة نجوم. كان فندقًا يمتلك من الروعة والترف ما جعله الفندق المفضل لدى الكثير من الشخصيات السياسية والثرية بالبلد. كانت تتوسطه حديقة بفخامة القرن الثامن عشر، وكانت الأبهة والفخامة بادية على مراياه، ولوحاته ونقوشه الذهبية تجعلك تظن أنك تدخل قصرًا من قصور ألف ليلة وليلة. نزلنا من السيارة وعلامة الذهول بادية علينا. وجدنا بالباب الكبير للفندق رجلًا في لباس تقليدي مغربي فاخر، يعكس أناقة وزهو صاحبه، قام بمرافقتنا حتى أرشدنا إلى الحديقة حيث تقام السهرة. استقبلنا النادل الذي كان يرتدي بذلة سوداء أنيقة مع ربطة عنق الفراشة، إلى درجة أنني لم أفرق بينه وبين المدعوين، الذين كانت تبدو على هيأتهم آثار الغنى والترف. رافقنا حتى الطاولة الفخمة، وسحب لنا الكراسي، فجلست جانب أحمد، بينما كمال توسط أحمد وسميرة، ثم أشعل النادل الشمعدان الذهبي التقليدي، بعدما مد لنا قائمة بأشهى أنواع الطعام، وشرع في سكب الشاي بالنعناع من براد تقليدي من الفضة في كؤوس زجاجية، مزخرفة بألوان ذهبية وفضية، كانت تزين الطاولة. انصرف النادل ليمهلنا الوقت حتى نختار من الطعام ما لذ وطاب. أحمد لم يعر أهمية لقائمة الطعام، ولا بي حتى، بل كان يحملق ويحدق بعينيه العميقتين في الضيوف، وكأنه يبحث عن شخص ما بعينه. شعرت حينها أن كرامتي العاطفية تهان، لأن تصرفاته كانت تزداد فظاظة وكأنه يتجاهلني. لقد

كان باله مشغولًا بشيء آخر. فجأة انتبه إلى وصول المحامي نجيب، الذي كان أحد أشهر محامي الرباط، وكانت علاقته وطيدة بالعديد من رجال الدولة، خاصةً وأنه تنقل كثيرًا من حزب إلى آخر، فبعد أن كان عضوًا بحزب الاستقلال، انتقل إلى حزب الاتحاد الاشتراكي، وها هو الآن أحد أهم أعضاء المكتب التنفيذي لحزب الأحرار. وبمجرد ما إن وقعت عينا أحمد عليه، حتى انصرف بدون استئذان، وتركني وحدي في زحمة تلك السهرة الباذخة. لحقت سميرة بأحمد، ولم يبقَ على تلك الطاولة الفخمة رفقتي سوى كمال. عاد النادل فطلبت من كمال أن يختار الطعام عوضًا عني، لم أكن أتقن قراءة تلك القوائم، غالبًا ما أجد بها أسماء باللغة الفرنسية لأطباق غريبة لم أعهدها من قبل. فجأة امتلأت الطاولة بأشهى الأطباق، فأصول الضيافة كانت تقتضي أن تقدم أطباق ثانوية مرفقة بالأطباق الرئيسية المختارة. كان كمال لا زال مستمرًّا في استراق النظرات إليَّ، بينما أنا أشغل نفسي بتناول وتذوق ذلك الطعام الشهي، كعصفورة صغيرة خائفة تحاول سرقة حبات القمح من فخ المصيدة. كان كل شيء من حولي خرافيًّا، وفي كامل أبهته وفخامته. أوانٍ فضية وأخرى مزينة بنقوش ذهبية. كان عشاءً فخمًا، بين ستائر تقليدية تنزل من علو شاهق. لاحقًا سأكتشف أنه كان قصرًا لأحد المقيمين العموميين أيام الاستعمار، وأنه تم تحويله إلى فندق بعدما حصل المغرب على استقلاله سنة 1956، كنوع من اقتلاع جذور المستعمر من البلاد حينها. قررت ألا أظهر دهشتي

وانبهاري مما حولي، خاصةً أنني كنت محاطة بمدعوين ومدعوات من علية القوم وأغناهم. لكن نظرات كمال كانت تربكني وتفضح دهشتي أمام الجميع، وارتفعت درجة قلقي حين وجه إليَّ الكلام قائلا:

- أرى أن أحمد وسميرة منسجمين تمامًا مع أجواء الحفل!

راح قلبي يخفق بشدة، حتى خيل إليَّ أن صوت خفقانه قد غطى على موسيقى الحفل الصاخبة. كنت أحاول جاهدة أن أتظاهر بالاتزان من تجاهل أحمد لي، ولكن كمال استطاع أن يوقظ شرارة تلك الغيرة التي أخفيتها طوال السهرة. ربما كان يريد أن يمرر عبر ذلك السؤال كلامًا حاول أن يخفيه طوال الطريق؟ أو ربما كانت دعوة صريحة للانسجام معًا خلال ذلك الحفل...

توقفت عن الأكل ورفعت رأسي نحوه وقلت:

- دعهما يستمتعان.. ألم نأتِ إلى الحفل من أجل هذا؟!

ضحك وتراجع إلى الوراء:

- طبعًا أكيد..

لم أكمل طعامي بعدها. فقد أحسست أن أحمد أهان كبريائي حين تركني على الطاولة وانشغل عني بالآخرين. لقد شعرت بالغيرة حينها من سميرة التي كانت تتحرك مع أحمد، وكأنها نحلة تحط على زهرة. وما كدت أنهض لأذهب إليه حتى توجه نحوي، وطلب مني أن أرافقه

ليقدمني إلى الأمين العام للحزب شخصيًا. كانت تلك اللفتة من أحمد كافية لأسترجع بعضًا من توازني. توجهت رفقته نحو أمين عام الحزب، كان شخصية سياسية مهمة في البلاد، ومرشحًا ليكون وزيرًا أولًا في الحكومة القادمة بعد انتهاء الانتخابات، كان في الخمسينيات من عمره، وكان رجلًا أنيقًا، يتكلم باتزان وحكمة، ويبتسم ابتسامة ماكرة وهو يصافح الجميع بطريقة واحدة. اقتربنا منه، فأخذني بها أوتي من نظر، ارتبكت حينها وخجلت عندما طوقني بنظراته طويلًا، فلم أعرف كيف أصافحه، فبسطت يدي نحوه وبصوت خجول:

- مساء الخير سيدي!

رفع هو يدي إلى فمه ووضع قبلة على ظهرها وأجاب:

- مساء الخير سيدتي!

وبعدها انضممنا إليه على الطاولة الأكثر فخامة، والأكبر حجمًا من كل الطاولات الموجودة بقاعة الحفل، التي كانت تتدلى منها ثريات ضخمة. حال جلوسنا راحت فرقة موسيقية، مكونة من عشرة موسيقيين، تعزف مقطوعات من أجمل الأغاني المغربية والشرقية والغربية. انتبهت سميرة إلى أن كمال بقي لوحده، فاستأذنت أمين الحزب في السماح لها باصطحابه ليلتحق بنا، إن لم يكن ذلك سيسبب حرجًا له، فأومأ برأسه وقال:

- بكل فرح عزيزتي..

انضم كمال إلينا، فسأله الأمين العام للحزب..

– لقد أخبرني أحمد أنك من الريف أيضًا.. هل تأقلمت هنا في العاصمة؟

أجابه كمال:

– أحاول جاهدًا.. رغم أن البعد عن الريف كالموت.. لكن من محاسنه أنه يغفر بعض الأخطاء أحيانًا!

تدخل أمين الحزب ضاحكًا:

– لكن أحمد انسجم مع العاصمة الإدارية! والدليل هو انسجامه مع ربطة عنقه التي كان يبدي تذمره منها في البداية..

تعالت بعض القهقهات قليلًا تفاعلًا مع كلام أمين الحزب، ورسمت ابتسامة خفيفة أعلن بها انسجامي معهم، فقاطعنا أمين الحزب بسؤال وجهه إليَّ شخصيًّا..

– أصحيح ما يقوله نجيب سيدتي؟ هل انسجمت أيضًا كما فعل أحمد؟

كنت أجلس قبالة الأمين العام للحزب، فازداد ارتباكي وخجلي، خاصةً وأنه كان لا يتوقف عن النظر إليَّ، فأجبت وأنا أصوب نظراتي العاتبة نحو أحمد الجالس بجانبي..

– نعم! ولكنني أعتقد بأن أحمد بارع في الانسجام أكثر مني..

كنت بذلك أريد أن ينتبه أحمد لغضبي وعدم ارتياحي، وأرسل في نفس الوقت رسالة مضمرة إلى الأمين العام للحزب، كنت متيقنة من ذكائه، وبذلك أخفف عني ارتباكي، وأصد نظراته التي زادت عن الحد المعقول. التقط أحمد شفرة رسالتي، فأراد أن يبدد الجو المتشنج بيننا حتى لا يظهر ذلك لأحد، وغير الموضوع حين توجه للأمين العام للحزب:

– كنا نتحدث قبل مجيئكما عن الانتخابات القادمة في ظل التغيرات السياسية التي تعرفها البلاد.. وقد أشار السيد أمين عام الحزب إلى فكرة مهمة.. نبهني أن هذه الانتخابات جزء من العملية السياسية وليست فعلًا ثوريًّا.

تدخل أمين عام الحزب بهيبته وجديته التي أخرجها في حينها.

– نعم! فسعينا لاقتناص بعض المكاسب منها ليس منافيا للقيم السياسية.. بل هذا جزء أصيل من اللعب السياسي.. فإذا كان المجتمع المدني غير قادر على لعب دور فعال بمفرده في هذه اللحظة التاريخية.. فعليه أن يساند أحد طرفي المعركة الانتخابية، مقابل الحصول على بعض المكاسب التي يمكن البناء عليها..

أجابه المحامي نجيب..

– تقصد أن فكرة "إما كل شيء أو لا شيء" لا تتناسب مع قدرات المجتمع المدني حاليًّا؟..

أردف أمين عام الحزب قائلًا..

– ليته كان قويًّا ومؤهلًا للعب هذا الدور، لكن الحقائق على الأرض تقول عكس ذلك..

فقال كمال وعلامة عدم الرضا بادية عليه..

– لكن لا تنسوا أن هذا النظام المستبد يحرق نفسه عندما أخمد الاحتجاجات.. وللأسف كان الشعب هو الوقود لذلك..

كنت أحس بحرقة داخلية من جراء ما أسمعه يدور من حولي، كنت أريد أن أصيح وأشارك برأيي لكني لم أستطع، لأن شيئًا بداخلي يشوش أفكاري، ويعكر صفو مزاجي. في تلك اللحظة قالت سميرة وقد غيرت من ملامحها المرحة إلى ملامح جدية:

– أعتقد أن إغلاق منافذ الاحتجاج أمام الشعب ليس علامة قوة في النظام بقدر ما هو غباء.. هم بذلك يرسخون فكرة "لا حل سوى الانفجار".. إنهم أشبه بشخص يؤسس بيتًا دون أبواب ولا نوافذ.. وحين سيود الخروج لن يجد أي طريقة سوى هدمه..

احتدم النقاش بينهم، بينما بقيت أنا صامتة، وقلت في نفسي:

– إنهم واهمون.. فلماذا كل هذا الوهم؟

أحاول في كل مرة أن أتخيل الحياة بين البشر دون وهم ولا أوهام، حياة حقيقية ملؤها الحقيقة، وتسيرها الحقائق نفسها، حيث لا مجال

للتشوهات بيننا، ثم سرعان ما يبدو لي أن الأمر شاذ وغير طبيعي. وأنا غارقة في استيهاماتي محاولة تجنب نظرات الأمين العام للحزب، التي كان يصوبها نحوي في كل الاتجاهات، قاطع شرودي وتوجه إليَّ بسؤال مصحوبًا بابتسامته الماكرة التي ترتدي ثوب اللباقة..

– ما رأيك يا سيدتي فيما قلناه؟ أراك صامتة ألا تحبين مشاركتنا النقاش؟

أحسست أنه يحرجني ويحاصرني بسؤاله هذا، فحاولت أن أجيبه بمكر مستتر:

– أحيانًا صوت الصمت أفصح من الكلام!

وسرعان ما تدخل أحمد حتى يتدارك الأمر، ولا يتكرر مني شيء يحرج الجميع. لقد أحسست ليلتها أن كرامتي قد أهينت. وبلطافته المعهودة وجه الكلام إلى الأمين العام للحزب وقال:

– أعتقد أن ضرورة وعي المجتمع المدني هو أيضًا ضرورة لاستمرار النظام.. لكن بالطبع لا يمكن أن يوجد وعي مكتمل منذ البداية.. لكنه عملية تراكمية تحصل عليها المجتمعات بالمحاولة والخطأ.. وحزبكم فهم جيدًا هذه النقطة! وفهم أن عدم وجود وعي كامل لدى المجتمع، لا يعني تأجيل الديموقراطية حتى بلوغ وعي كامل.. بل إن كل الأمور ومن بينها النتائج الانتخابية القادمة يمكن أن تسير في خطوط متوازية.

انشرحت أسارير وجه الأمين العام للحزب، وقال بعد أن استنشق غليونه معبرًا عن إعجابه بأفكار أحمد:

– أحييك على اتزان أفكارك ونظرتك العميقة إلى الأمور! لا بد أن أشكر المحامي نجيب على إتاحته فرصة التعرف على شاب متزن ومثقف مثلك.. وسأعمل جاهدًا لأستقبلك بمكتبي حتى نوسع النقاش أكثر..

فرحت عندما استطاع أحمد بذكائه أن يخرجني من تلك القوقعة، ويشغل بال الأمين العام عني. وكذلك انشغل كمال بوشوشة بينه وبين سميرة، حين انتبها لارتياح الأمين العام من كلام أحمد.

انتهى بنا الأمر في تلك السهرة إلى جو من شبه الرضا. فأنا ارتحت بعدها من نظرات كانت تنهش جسدي وتحاول اقتحامه، وأحمد نال ما كان يصبو إليه من التقرب من أولياء القرار، بينما سميرة وكمال فتحا باب نقاش لن ينتهي بسهولة. وعند العودة عمل الأمين العام على إرسال أحد السائقين لإيصالنا حتى البيت، وكذلك فعل مع كمال وسميرة. فدلفت رفقة أحمد إلى البيت ونحن صامتان ودون أن ننبس بأي كلمة. لم ننم تلك الليلة، أدار أحمد لي ظهره ورأسه تحت الوسادة في السرير، فأدرت له ظهري أيضًا. لم أتوقع منه أن يعاملني بهذه الفظاظة. لم يعلم أن تلك السهرة آذتني وجردتني من روحي وكبريائي. فجأة انتصب أحمد في السرير وبدأ يفتش فوق المنضدة عن شيء ما، سألته:

- عمَّ تفتش؟

- عن علبة سجائري!

قالها بصوت جاف، ومع ذلك فتشت معه في الغرفة، ثم زحفت وأخذت أبحث تحت السرير..

- لا توجد أي علبة سجائر هنا! من المؤكد أنها في جيب سروالك..

نهض أحمد من السرير وتوجه نحو الكنبة الصغيرة التي وضع فوقها ملابسه التي خلعها، فتش جيوب سرواله، وأخذ علبة السجائر، ثم عاد إلى جواري فوق السرير، أشعل سجارته وأخذ النفس الأول بحرقة مختلطة بانتشاء، وقال:

- لماذا لم تنامي بعد؟

- ربما لنفس السبب الذي جعلك لا تنام أنت أيضًا.

زعق أحمد وهو يطفئ سيجارته التي بالكاد أشعلها بعصبية شديدة..

- كيف لنفس السبب؟

ثم استدار نحوي بعدما اعتدل في جلسته..

- لم أعد أفهم تصرفاتك مؤخرًا! وكيف تجرأت على إحراجي أمام أصدقائي؟!

بقيت متسمرة في مكاني أعتنق الصمت. لم أصدق أن أحمد الهادئ، الذي لا أكاد أسمع صوته يصرخ في وجهي. وكانت صرخاته كفوهة بركان انفجرت وفتحت فاها بقلبي. تأذيت كثيرًا وأحسست أنني أنتمي إلى كل أولئك الذين يصعب عليهم ترك كبريائهم يبيت في العراء، إلى كل الذين وجدوا أنفسهم رهائن عند من ائتمنوهم على قلوبهم. انتفضت وقمت من سريري ووقفت منتصبة أمامه. حاولت أن أتماسك وأن أمنع نفسي من البكاء. فقلت له وأنا على وشك الانهيار..

– لا أصدق أنك تخاطبني بهذه الطريقة! تقول إنني أحرجتك أمام أصدقائك ومعارفك؟! حسنًا! ألست أنت من أحرجتني بتجاهلك لي، وبقضائك الوقت كله مع سميرة؟

لم أدرِ كيف استطاع أن يقوم من السرير بتلك السرعة حتى وجدته أمام وجهي، وحرارة أنفاسه تتطاير بين رموش عيني. أحسست أنه كان راغبًا في ضربي وخنقي. لكنه أمسك نفسه وتجاهل غضبه، ثم خرج من غرفة النوم، وذهب إلى الصالة الصغيرة دون أن ينطق بأي كلمة أخرى. لقد تركني وأنا أنتحب. كان بقلبي مد وجزر من الحزن والخيبة، أحسست أنني هشة الروح أقاسي ظل الذل وخبث العبث، وكأنني جثة باردة تشظت على أرصفة المهانة. لم أصدق أن أحمد الذي لملمت حب الكل في حبه، وتركت عالمي كله من خلفي من أجله، يذلني بهذه الطريقة. ارتميت على السرير منهارة، لم أقوَ على اللحاق به كما كنت أفعل دائمًا حين

يغضب. لقد خانتني قدماي هذه المرة، وبقيت مرمية على السرير شاردة كظل وحيد في الليل، أخض العتمة بأصابع عمياء، وأتحسس الفراغ الذي ملأ الغرفة، وأقتفي أثر الصمت لأشي له بألمي. لم يغمض لي جفن تلك الليلة، وبقي أحمد هو الآخر مستيقظًا حتى الصباح، ولحسن الحظ كان صباح يوم الأحد.

استفقت عند الساعة الواحدة بعد منتصف النهار، بقيت متمددة في السرير أحدق إلى السقف حيث تركت نفسي تحوم حولي ليلًا. لم أدرِ كيف ومتى غفوت. كثرت التساؤلات التي انهالت عليَّ كانت تخنقني، كما خنقني صمت أحمد ليلتها. حاولت أن أتحسس تحركاته، وأستشعر وجوده، لقد خرج ليلتها إلى الصالة الصغيرة، وكنت أمني النفس أن أجده صباحًا بجانبي، فكتمت أنفاسي لعلي أسترق السمع من زفير أنفاسه، فلم أجد سوى صدى بعض منبهات السيارات تأتي من الخارج بعيدة. نهضت بعدما غيرت ملابسي بسرعة، كان قد أخذ مني القلق مكانه بعدما لم أستشعر وجود أحمد بجانبي. لقد كانت أول ليلة أنام فيها وحدي على سرير الحب. وخرجت مسرعة إلى الصالة الصغيرة، وإذ بي أجده نائمًا على الأريكة، خالجني شعور مختلط بين الفرح والقلق، ثم توجهت إلى المطبخ وأعددت الفطور، رغم أنه لا رغبة لي في الأكل، شعرت أن قواي خائرة. نظرت من النافذة، كان الجو في الخارج رماديًّا، ابتلعت رغبتي في البكاء، وفطنت إلى أنني لم أخرج من مرحلة الاستياء

والحزن، فجأة سمعت صوت الباب يغلق بقوة، فعلمت أن أحمد قد خرج دون أن يعلمني بذلك، واعتقدت حينها أن البركان قد انفجر ويستحيل إعادة حممه إلى داخله.

بعد أن مرت خمسة أشهر على تلك الحفلة، التي أصبح كل شيء من بعدها مختلفًا بالنسبة لي، ها أنا أجتر الانتظار، وأعصر بين كفي الوهم، وأغض الحنين الذي يسكنني، وأداري بحة الحب. لا مفر لي من أحمد ولا من حياتي معه، لكن أحمد لم يعد كما كان. كنا قد قدمنا تنازلات بعد تلك الليلة وتصالحنا، لكنه بعدها أصبح منشغلًا، ومنغمسًا في ملفاته وجلساته التي أصبح يتفادى أن يصطحبني معه لحضورها. يخرج في الصباح الباكر ولا يعود حتى منتصف الليل، أبقى حينها أنا فريسة سهلة للحزن، وحيدة كوردة على قبر غريب، وعرضة لسياط الملل والضجر التي تلسع روحي المتشققة، وكأنها أرض لم تهطل عليها الأمطار منذ سنوات. أن أكون امرأة فهذا وضع لم أختره لنفسي، لكن أن أكون امرأة مستاءة وكئيبة فهذا ناتج عن اختيار، اختيار لا يمكن اعتباره لا انحيازًا ولا فشلًا. فكرت أنه يفترض بي حيال هذا الوضع أن أتصرف بطريقة مناسبة تخرجني منه. فالحياة بالنسبة لي تعني الرؤية الواضحة، والهدف الذي أريد أن أصبو إليه، وسعادتي هي ما أصبو إليه. تذكرت كم كنت سعيدة عندما كنت تلميذة، وعندما كنت أتدرب على التمريض بالمستوصف الإسباني التابع للكنيسة الإسبانية، وقلت في نفسي لماذا لا أفاتح أحمد في موضوع إتمام

دراستي بالجامعة، وربما قد أتمكن من تحقيق حلمي في أن أصبح طبيبة لامعة، لقد سبق ووعدني بذلك. شعرت أن مزاجي بدأ يتحسن فخرجت لأستعيد شيئًا من توازني، وأبحث بين دروب مدينة الرباط العتيقة عن فكرة أو شيء ما كان دائمًا ينقصني، فلم أجد غير ازدحام المارة وضجيجًا يقلق ترتيب أفكاري. فتوجهت إلى الشارع المحاذي لوادي أبي رقراق، كنت أرغب في رؤية الوادي والتوقف عند ضفته، لأستمتع برؤية الماء والزوارق الصغيرة. كانت رؤية الماء الجاري تهدئني وتشفيني. نظرت طويلًا إلى الماء الذي بدا لي أكثر حزنًا وقتامة من روحي، وفجأة لمحت مقعدًا خشبيًّا بقرب الحديقة المحازية للوادي، جلست وكأنني أجلس على مقعد النسيان بحديقة منسية، شعرت أنني تفاحة متعفنة يقسمها سكين الحنين والخيبات إلى نصفين، نصفًا أقدمه قربانًا لتجاهله اللعين والنصف الآخر أقدمه قربانا لذاكرتي الملتحفة بأوجاع التذكر. أخذت أتأمل ماء الوادي من بعيد، كنت أشعر بحزن ووحدة لا متناهيين. فأحيانًا يأتي وقت ونظن أن الأيام متشابهات ولا جديد يلوح في الأفق، فتبدأ الروح بالمعاناة والنفس في الضيق، حتى نكتشف ذات يوم أن هناك ما يستحق أن نلتفت له، فتغزو البهجة أرواحنا بينما يندفع الضياء نحوها، نحتضن دهشتنا من الأيام ويكون ذلك أمرًا آخر رائعًا! لكن هذه البهجة سرعان ما تتلاشى حين تتذكر امرأة مثلي أنها تحمل قلبًا يعذبه اختياره للحب. ربما كان يجب إعفاؤنا من مشقة حمل قلب داخل هذه الأجساد المتعبة. إنه عبء كبير أن تعشق امرأة رجلًا ليس من أولوياته الحب،

هذا سبب كافٍ لتحيا دائمًا على حافة الشكوك والاحتمالات. ربما لأن الحب لا يفتح نوافذ المتعة والسعادة في وجه الباحثين عن الحقيقة أبدًا، بل يفتحها في وجه الواهمين دائمًا، لأن لا شيء يكسر قلوب الناس سوى الحقيقة القاسية، ولا شيء يجبر هذا الكسر سوى الوهم المريح. نعم إنه الحب، إنه متسع لتفاوض الأوهام. كم هو مخطئ من يظن أن الحب مبني على الوضوح والتفاهم، فالحب بنفسه سوء فهم كبير.

عدت إلى المنزل ذلك المساء، أشعلت الضوء، وتوجهت مباشرة إلى المطبخ لإعداد وجبة العشاء. حاولت أن أحضر أشهى الأطباق التي يحبها أحمد. خففت النار تحت الطبخة، تذكرت أمي حين كانت تعلمنا الطبخ وتؤكد لي ولشقيقاتي أن ألذ الطعام هو ما يطهى على مهل. جهزت الطاولة الخشبية الصغيرة الموجودة في الصالة في انتظار أن يجهز العشاء، زينتها بالورد والشمع. كنت أريده عشاءً رومانسيًّا، ينفض غبار الاستياء والملل من حياتنا الزوجية. أطفأت النار تحت قدر الطعام، وبسرعة دخلت إلى غرفة النوم حيث خزانة ملابسي، لأرتدي أحد الفساتين التي يحب أن يراها أحمد عليَّ. أغدقت الكحل في عيني ووضعت أحمر الشفاه، ورششت عطري المفضل. ذهبت إلى المكتبة الموسيقية لأختار أغنية تليق بهذه الأمسية، انتقيت قائمة من أغانينا المفضلة التي تذكرنا بأجمل ذكرياتنا معًا، ثم أخرجت الطقم الصيني المميز وأدوات المائدة التي كنت أحفظها لمثل هذه المناسبات. أصبح كل شيء جاهزًا، لا ينقصني

الآن سوى حضور أحمد، لكنه تأخر كعادته. فقد كان يمضي طوال اليوم بالمكتب، وفي المساء يذهب رفقة أصدقائه إلى الحانة، فيما أبقى أنا وحيدة في البيت. لحسن الحظ أنني كنت أجد مهربًا من وحدتي تلك في مكتبه، حيث أمضي الوقت في قراءة الكتب والروايات وبعض المجلات، وكذلك الجرائد اليومية التي كانت لا تفارقه. كانت القراءة هي عزائي الوحيد للتخلص من الكرب والحزن اللذين كنت غارقة فيهما. فجأة سمعت دوران المفتاح في فوهة الباب، كان أحمد. راح قلبي يخفق من الحماسة لفتح موضوع الالتحاق بالجامعة معه. استقبلته بابتسامتي التي كنت أخفي من ورائها ألم وحدتي. فخلف بعض الابتسامات يسكن ألم الكون بأسره. ورغم ذلك كان حبه في قلبي يكبر وشوقي إليه يزداد. آه من الشوق الذي يقطف روحي كل مساء إليه. إن الشوق كالجوع المزمن، يأكل الهشيم فينا بنهم الحريق. قبلته على جبينه وقبلني قبلة عميقة على خدي، تردد صداها في جسدي كله. حملت عنه حقيبته ووضعتها على جانب الباب، وطلبت منه أن يغمض عينيه وألا يفتحهما حتى يدخل. وحين دخل الصالة طلبت منه فتح عينيه، تفاجأ من روعة المفاجأة، تأمل جمال الطاولة وجمال الصالة البسيطة، التي لم يكن بها سوى أريكتين والطاولة الصغيرة في الزاوية يحيطها أربعة كراسي. كان يحتاج إلى مثل هذه الخطوة من الحين للآخر، سألني باشتهاء ملتبس:

– كيف ومتى جهزت هذا كله؟!

كان مزاجي كمزن الليل محمولًا على أجنحته، أبحث في اتساق المعاني، وتشعبات الشوق عن علامة أمل، أرسم بها فجرًا عسير الولادة من لحظة عشق لرجل أوشك أن يكون إعصارًا من الشهوة، يقتلع روحي من جذورها. وأجبته وأنا لا أزال واقفة..

- قمت بكل شيء هذا المساء..

تأملني كإمام على محراب يدعو المصلين للوقوف أمام القبلة لأداء الصلاة، كان يدعوني لصلاة من نوع آخر. كانت يداه تلتفان حول خصري وكأنهما سور بابل. واحتضنني بقوة العاشق فارتجفت، وقبلني بشهوة المحب فتوهجت. فالحضن محراب العاشقين والقبلة قبلتهم. خلع بذلته كما يخلع المحارب درعه، أمسك بيدي وهو يوجه صوبي ابتسامته الغامضة، ثم جلسنا إلى الطاولة متقابلين على ضوء الشموع، وعلى أنغام موسيقانا الخالدة. قال وهو يزيح قليلًا الشمعدان الذي كان يحجب الرؤيا بيننا:

- أعتقد أن هذه الليلة الجميلة أقصر من أشرح لك فيها مدى حبي وتعلقي بك يا سوار!

نظرت إليه نظرة العاشقة، وجرح الشوق الشهي يطوقني، وقلت له:

- يكفيني أن تكون رحيق الليالي من حياتي معك، لتتغنى عتمة الوحدة بك حين تتركني وحيدة..

كان يدري أن هذه الأمسية لغم مقنع بقناع الوجع والألم. فجسدي المثقل بتعب الغياب والوحدة يشي له بمواويل صمت جرحي في غيابه، وتركي وحيدة بين الجدران الأربعة ينهش قلبي الفراغ والملل. كان حزني الذي أداريه عنه طوال سهرتنا يموسق إيقاعنا ويشق الاستياء ويحفر أرضنا حتى تخرج أثقالها. نهض واقفًا قبل حتى أن يكمل عشاءه، أمسك بيدي وجرني إليه، ثم طوق خصري مجددًا بذراعيه اللتين استسلمت لجنونهما، كما استسلمت للقبل التي انهال بها عليَّ. شعرت أنني ثملت من رحيق القبل، ومن هذه اللحظات المخطوفة من عمر الزمان. لا مفر من عفوية هذا الحب الجارح، ومن ازدحام هذين الجسدين بكهرباء اللذة والنشوة، ومن هذا التوق الشرس الكاسح ومن هذه القبل التي تزعق في الأوردة، وكأنها نور يضيء عتمة كل هذا الكون. قررت أن أكون سخية مع نفسي ومعه. فلقد اشتقت لمثل هذه المغامرات التي أنهكتها الوحدة والملل، فأرخيت جناحي العشق لظلال الشهوة. ووشوش في أذني اليسرى ونحن نرقص على أنغام موسيقى خوليو إجلسياس:

– كم أشعر بالخجل وبالسوء من نفسي يا سوار! لأنني أضطر إلى تركك وحدك طوال النهار.. أعلم أنك منزعجة مني لهذا السبب.. لكن ما باليد من حيلة.. لا بد من العمل بجد ليل نهار لنصل إلى المقام العالي الذي نستحقه في هذا المجتمع.. لا تقلقي سأعوض لك كل هذا..

كنت أستمع لكلماته التي كانت تتردد فوق كتفي قبل أن تتسلل إلى

أذني، وأنا فرحة من أنه فهم قصدي، وهممت بقطع كلامه لأقول له إنه يمكن أن نترك الحب يداعب كل أيامنا، ونحن نبني مستقبلنا رويدًا رويدًا، فلم أستطع. كنت خائفة من أن أترك هذه الفرحة تنساب من أصابع يدي، وأنا لم أصدق أنني قد طوقت قبضة يدي عليها من جديد. فوضعت رأسي على كتفه وأجلت كل ما كنت أنوي أن أفاتحه به. يا لأنانية قلبي!

فزاد هو وقال:

– سترافقينني في كل سفرياتي القادمة.. وستكونين إلى جانبي طوال اليوم.. ما رأيك بهذا؟!

أجبته وعلامة الفرحة مضيئة في عيني المتوهجتين:

– طبعًا سأكون سعيدة بمرافقتك! لكن افهمني يا أحمد..

كلمة لكن كانت كافية ليرفع رأسه وينظر إليَّ باستغراب. كنت أعلم مدى ذكائه. لكن عقلي لم يطاوع قلبي الذي استسلم للذة والشهوة، ولم يستشرني في ترتيب تلك الجملة التي جعلت أحمد يستفيق من ثمالة اللحظة. وقال بنبرة مملوءة بالتساؤلات:

– ماذا تريدين أن تقولي وضحي!؟

قالها وهو يبعد جسدي عن جسده قليلًا، وكأنه يضع حدودًا فاصلة

بين قلبينا ليجعل فجًّا يتسرب منه غضبه. كنت أعلم أنه لم يعد يطيق الكلام عن مشاكلي، فهو كان منشغلًا بمستقبله أكثر من أي شيء كان يجمعنا. كان يظن أنه بالمال يمكن أن نشتري سعادة لا تنتهي، وأنا كنت أظن أن بوجوده بجانبي تنتهي أحزاني. لم نعد نسير على نفس الطريق، فلقد اختلفت أحلامنا التي كانت مجتمعة لأيام قليلة خلت. ومع ذلك أصررت على أن أفاتحه في الموضوع لعله يرؤف لحالي، وقلت بعدما ضممته إليَّ وأسندت رأسي على كتفه:

– عندما سنعود من السفر، سأجد نفسي فريسة سهلة مجددًا للملل والفراغ.. وستنقض عليَّ مشاعر الحزن والوحدة مجددًا.. وأنا بصراحة لم أعد قادرة على تحمل هذا الوضع!

كانت نهاية الأمسية قد أعلنها بعدما أبعد قلبينا المتلاصقين، فلم يعد قلبي يستمع إلى دقات قلبه، بل كان يصله صدى زفيره الذي بدأ يتلاشى بعدما تراجع إلى الوراء وارتمى على الأريكة، وأخرج سيجارته الأولى ذلك المساء، أشعلها ببطء، كأنه كان يشعل أوتار قلبي معها. أحسست أنني رماد قديم لم يعد يصلح لشيء. تسمرت في مكاني، لم أعد أدري ما الذي سأفعله، هل أقترب أم أبتعد، أم أظل جامدة في مكاني. كانت كل هذه التناقضات تتصارع بداخلي. هممت بالبكاء، فخانتني قطرات الدموع، وهممت بالصراخ، فخانتني القوة. لقد انهار كل شيء! عبارة بدأ يتردد صداها داخل أذني وكان يرافقها طنين مستمر.

أخذ نفسًا من سيجارته بعمق، ورفع بصره إليَّ. أحسست حينها أنني واقفة على فوهة بركان تنتظرني أن أقترب لتنفجر. لكن أحمد كان يعرف كيف يتلاعب بمشاعري، وكان يحسن العزف على أوتار قلبي. لقد جعل شفتيه ترسمان ابتسامة كنت أعلم أنها لتهدئتي، وقال:

- سأفكر في الموضوع يا سوار.

كانت كلمة سوار من رجل عنيد مثله تعيد الحياة والأمل إلى قلبي الذابل. ورغم أنني صدقت حدسي حين تنبأ بالأمل فإنني لم أجد مفرًّا من مد عنق الخوف الممتد بي لمقصلة القدر، لم أمتلك شيئًا في تلك اللحظة سوى ذرات المجهول وقلبًا مثقلًا بالأوجاع وروحًا ملتحفة بالأوهام، شعرت وأنا مرتمية بين أحضانه أنني امرأة تافهة بلغت أقصى درجات التفاهة حين قبلت على نفسها أن تقتات من أكوام الوهم، فالتافهون وحدهم يقتاتون على الوهم والمبالغات، استسلمت لطوفان الشهوة وخلعت عني أحزاني لأنذر نفسي للعشق حتى متم قطف النشوة من على حواف الروح وبهمس نفثته في أذنه اليمنى:

- أنا لا أريد منك سوى أن تنظر إليَّ متباهيا وكأنني كل انتصاراتك!

تبسم وضمني من جديد إليه وهو يهمس لي:

- أنا كذلك يا سوار، أعدك أنه بعد هذه السفريات التي ستحدد مستقبلي سأجد حلًّا يرضينا معًا..

كان وقع هذا الوعد على قلبي كوقع نقر طبول الحرب عندما تضع أوزارها، ويرجع كل عاشق إلى حضن حبيبته. كذلك أحس قلبي أنه ولد من جديد. وأنني امرأة تستحق رجلًا ينظر إليها متباهيًا وكأنها كل انتصاراته، وعشت بذلك الأمل لفترة تجاوزت الثلاثة أشهر، لم أعد أشعر بملل ولا بوحدة. مخطئ من قال إن رنين الكلام لا يترك صداه في الروح. لقد عشت ثلاثة أشهر أنعم في فرحة رغم أنه لم يتغير شيء فيها. لقد بقي على عادته لا يدخل البيت إلا متأخرًا، وكنت أنتظره حتى ينام وبعدها أنام. وبانقضاء تلك الشهور بدأ يطفو هلال الحزن من جديد، معلنًا عن رجوع تلك الليالي المؤلمة والأيام الباردة. وقبل أن يدخل أحمد متأخرًا أكثر من عادته تلك الليلة، كنت أتساءل مع نفسي إلى أين نحن ذاهبان بعلاقتنا هذه. أجدني بين الفينة والأخرى أطرح هذا السؤال على نفسي. وبصرف النظر عن أنني أحاول جاهدة إيجاد أجوبة مقنعة ومنطقية بما يتوافق مع ما يدركه عقلي، فإنني في كل مرة أجدني أمام مفترق طرق، وضائعة بين الوهم الذي يشبه الأمل والأمل الذي يشبه الوهم. كم أنا خائفة من هذه المتاهة. كيف يمكنني أن أميز في حياتي هذه بين الأمل الذي يرتدي قناع الوهم، والوهم الذي يرتدي قناع الأمل. متعبة من إعلان الشك على الاثنين. أشفق على نفسي التي لم تستوعب بعد الفرق بينهما. على أيٍّ سأتشبث بالأمل فهو وسيلة جيدة لنشعر بالمتعة، ونحن قد ننتظر ما لن يأتي.

وأنا في خضم التجاذب والتقاطب مع الأفكار التي طوقت عقلي وسيطرت على مشاعري، دخل أحمد وقد كدت أغفو من التعب والتفكير. فتح الباب بهدوء لكي لا يوقظني، ثم نزع ثيابه ووضعها على المنضدة كعادته، وتوجه نحوي وباغتني بقبلة فاستفقت من غفوتي. كان في مزاج جيد، رغم أن التعب كان باديًا عليه بسبب السهر والإفراط في الشرب. لكنه سألني بكل بهجة..

- ألا تزالين مستيقظة!

كنت أود أن أجيبه بأنني تعبت وسئمت من تأخره كل ليلة وانتظاره، لكن الأمل والحب اللذين كنت أتشبث بهما كانا ينسياني في ألم الانتظار الذي أحوله إلى نشوة انتظار. فأجبته مستدركة:

- لا عليك يا أحمد.. كنت بانتظارك..

كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد منتصف الليل، وأحمد لم يستطع تأجيل الحديث معي، رغم أن حالته كانت مزرية من إفراطه في الشرب تلك الليلة، وجلس على حافة السرير وقال:

- أحمل إليك خبرًا سارًّا يا سوار..

كانت شظايا فرحته تصلني من كلامه، وكنت أتوقع أنه يحمل لي خبرًا بخصوص تسجيلي بالجامعة. فقلت والبهجة تعلو محياي..

– قل ما عندك يا أحمد بسرعة..

وما كاد يخبرني حتى كنت أظن أن قلبي من شدة خفقانه سينط من مكانه ويغير مكان إقامته بين ضلوعي التي خنقته. لقد كان يحمل حب أحمد وهمومي، التي بدأت تنمو وتكبر كنبات الليل، ولم يعد صدري يتسع لصداها. فأجابني وهو مزهو بنفسه..

– سنسافر بعد غد في جولة عمل إلى أوربا.. سنزور تلك العواصم الكبيرة التي طالما حلمنا بزيارتها..

بقيت مشدوهة من الخيبة والفرحة معًا. بعد لحظة حاولت استدراجه لمزيد من التوضيح بخصوص إمكانية التحاقي بالجامعة، فسألته:

– وهل عندما نعود ستسجلني بالجامعة كما وعدتني؟

أجابني وشهوته التي نضجت بدأت تستيقظ وقال:

– تحلي بالصبر.. عندما سنعود سأنظر في الأمر..

لا بد من الاعتراف بأن وعده منحني لذة جسدية. لقد توقدت أملًا ورغبة من جديد. شعرت أنني في حاجة إلى التقبيل والشعور بألم اللذة عند التحام جسدين. دلفت إلى الفراش، وأدرك أحمد أنني مثارة جدًّا، كان هو أيضًا متلهفًا، كان يهوي ويتخطف كالحلم، كموجة تخيط أطراف الظمأ إلى الجسد. أدركنا مدى جوعنا إلى الحب. داعبنا التشظي وأوقدنا

أطراف الشهوة انتشاءً، وارتشفنا عرق الجسدين الغارقين في محيط اللذة، وكأننا نهدي روحينا إلى جنة عدن.

بعدما اكتفينا من ممارسة الحب نام أحمد، استلقيت إلى جانبه أراقب طلوع الشمس من نافذة الغرفة، وقبل أن أغفو، لا أعرف كيف تذكرت تلك النافذة الزرقاء ببيت والدي الكبير. تلك النافذة التي كان يتجلى منها الحب في الضلوع اعتصارًا، حينما كنت ألمح أحمد منها كبرق خاطف، وكان هو يتلمس الغواية منها كالرعد. تذكرت أبي وأمي، وكذلك أختيَّ كريمة ولويزة، وتذكرت أخي صالح. صالح الذي لا يمكنني نسيانه، وكلما حاولت نسيانه أجده يركض كالطفل في ذاكرتي، وأينما وليت وجهي أراه من حولي هنا وهناك، وكأنما كل الكون أصبح ظله وأنا ظل ظلي في الظلام.

منذ قدومي إلى مدينة الرباط وأنا أتفادى تقصي أخباره من أحمد، لأن الموضوع كان يؤرقه. فكنت أحاول تجنب إيقاظ هذه الذكرى التي توجع أحمد كثيرًا. كنت أرى ذلك الوجع في عينيه وألمحه يسري في ملامحه، كان ثمة شيء في وجهه يوحي بالندم خصوصًا عندما كان يرجع إلى المنزل ثملًا. كانت ذكرى اعتقاله تثقل كاهله وجسده معًا، فيرتمي بجانبي كجثة هامدة، تتطاير منها بعض الآهات التي تخفي آلام اعتقاله. كانت تلك الآهات تأتي على شكل كلمات متقطعة، كلمات قصيرة ومثقلة بغبار العذاب:

– "ابتعدوا عني..اتركوني وشأني.. أيها الأوغاد..".

تملكني حزن نبيل ذكرني بنبل حزن أمي على اختفاء صالح. الحزن النبيل هو ما بعد الانكسار مباشرة. فقد كان اختفاء أخي صالح هو الانكسار الشاهق في حياة أمي. ولكن نبل الأحزان ينال منها الزمن، ويأكلها الانزواء وتمتصها الأقدار. فلا ثمة أحلام عظيمة ولا انكسارات مدهشة. لا يبقى سوى الذهول والإثم. هكذا هي الأحزان العظيمة، لا تنمحي ولا تصير إلى عدم مطلقًا، بل إن كل الجهد الممكن للزمن حيالها، هو أن يطمرها حتى تنضج على مهل في عشرات السنين، أو ربما في مئات السنين، لترسم الخط الفاصل بين عصرين.

أحسست تلك الليلة أنه محكوم عليَّ بلعنة الاختفاء. اختفاء من أحبهم واحدًا تلو الآخر. اختفاء إخوتي الذين هجروا الوطن إلى أوروبا، واختفاء صالح وبعدها اختفائي أنا من بينهم. اختفاء كان يكبر بي كما يكبر الجنين بالرحم. غفوت وغصات صهيل الحنين والتيه تزهق روحي، وتبطش بذاكرتي، كأنها أعاصير صيرتني عدمًا، وحولتني إلى رماد. كان قلبي ينفطر بكاءً، لكن أحمد نام كعادته ولم يسمعها. ربما لأن دموع القلب لا يسمع لها بكاء.

حطت الطائرة بروما المدينة الخالدة. كانت المرة الأولى في حياتي التي أسافر فيها خارج الوطن. سافرت بأحاسيس متناقضة لم أعرف مثلها من قبل. لأول مرة أركب الطائرة وأصاب بذعر السعادة، وأنا أترقب

الغيوم والأرض تحتنا من نافذة الطائرة. كان أحمد يجلس إلى جانبي وهو مزهو بنفسه، يتصفح بعض الصحف وبعض المجلات، المتوفرة على الدرجة الأولى، في انسجام تام مع نفسه وكأنه ألف ركوب الطائرات. حال وصولنا إلى المطار وانتهائنا من إجراءات الوصول، وجدنا سيارة سوداء من نوع فاخر، ينتظرنا فيها سائق يرتدي بذلة أنيقة. أخذ الحقائب منا ووضعها خلف السيارة. استغربت من الأمر، فقد كنت أظن أننا سنركب سيارة أجرة للذهاب إلى الفندق الذي حجزه أحمد. لم أشأ في تلك اللحظة أن أسأله عمن أرسل لنا هذه السيارة الفخمة، حتى لا أحرجه أمام السائق، وفضلت الصمت والتجاوز عن الأمر إلى أن نصل وأستفسره عن الأمر. لم أشأ أن أعكر صفو السعادة التي أحسست بها عندما بدأ السائق يشق بنا شوارع روما الكبيرة والنظيفة. كنت مبتهجة كالفراشة وأنا أرمق طوال الطريق، من نافذة السيارة، جمال العمران الروماني والحدائق المكسوة بالورود الملونة في كل جانب. كنت كالفراشة التي بالكاد خرجت من شرنقتها، والتي تكتشف جمال العالم من حولها لأول مرة. رغم أن الفراشات تحترق دومًا، لأنها منذ ملايين السنين ظلت تأبى الحذر وتلعن وصاية الشرنقة. ومن العجب أن ذلك كان لها حياة.

عند باب الفندق الفخم أمسكت بذراع أحمد وبيدي الأخرى حقيبة اليد الصغيرة. كان فندقًا باذخ الفخامة، وذا طراز معماري قديم وأنيق. تكلف السائق بأمتعتنا، بينما توجهنا أنا وأحمد إلى الاستقبالات للتأكد

من الحجز بأسمائنا. دبت في قلبي حماسة ممزوجة بخوف وترقب. بعد انتهائنا من إجراءات التسجيل، رافقنا أحد عمال الفندق الأنيقين حتى باب المصعد. طلب المصعد وقال بلغة فرنسية ركيكة وبلكنة إيطالية:

– لقد حجزنا لكم في الطابق الثالث الذي يعد من أجمل الجناحات لدينا كما طُلِب منا..

وصلنا إلى الجناح، كنت مشدوهة من الفخامة التي تطوقني، فتح العامل باب الجناح وقال بكل لباقة:

– أتمنى لكما قضاء وقت ممتع..

انصرف العامل، وأغلق أحمد باب الجناح بعد أن قبلني على وجنتي، وسحبني إلى الداخل بسرعة وضمني بقوة. كان سعيدًا وودودًا كما لم أره يومًا. كان محتفيًا بنفسه، غير مصدق لوجوده في إيطاليا. راح يتأمل بعدها الجناح الفخم، ويتأمل أناقة الأثاث المنتقى بذوق إيطالي قح. كل شيء كان ينطق ويعكس فخامة الذوق الإيطالي الرفيع، المنغمس في عبق الحضارة الرومانية. الطاولات كما الرفوف مزينة بزخرفة رومانية عريقة وعتيقة، وفوقها علب الشوكولاتة المذهبة، ومزهريات بها أرقى وأندر أنواع الورود التي شاهدتها عيناي، حتى الكراسي لم تقل جمالًا عن كل اللوحات والستائر، والسجاد الحريري الممدد على الأرض بألوان ناعمة. فتح أحمد ستار النافذة ثم ناداني:

– تعالي يا سوار أريك هذا المنظر!

لحقت به إلى الشرفة، ففتح ستار النافذة، ثم طوقني بين ذراعيه وهمس لي:

– انظري إلى هذه الشوارع يا سوار.. إنها شوارع روما الجميلة..

غمرني خجل لم أشعر به من قبل وهو يطوقني، ويقبلني أمام المارة الذين يسيرون على طول الشارع في صمت ونظام. ثم استرسل وقال:

– يقال إن كل الطرق تؤدي إلى روما.. وأعتقد أن كل هذه الطرق هي أيضًا ستؤدي بنا إلى النجاح والمجد يا سوار!

كان المنظر يطل على أجمل وأرقى الشوارع الموجودة بروما، وعلى الطرف الآخر يمتد نهر التيبر الكبير، الذي تكاد تغطي الأشجار الباسقة ضفافه التي تحيط به. لم أستطع أن أطلق العنان لنفسي لأتمتع بالثراء والفخامة اللذين كانا يحيطان بي من كل جهة. كان تفكيري مشغولًا عن: من أين لأحمد بكل هذه النقود لشراء تذاكر السفر على الدرجة الأولى، والحجز في أفخم فنادق روما. كنت مترددة في سؤاله، لم أشأ أن أعكر صفو فرحته. وبعد صراع مع التردد، لم أدرِ كيف قررت أن أسأله:

– من أين لك بتكاليف هذا السفر يا أحمد؟!

رد عليَّ بتجاهل وهو يتوجه نحو المرآة الكبيرة التي تتوسط الحمام ذا الرخام الإيطالي الفخم، وقد بدأ يرتب هندامه..

– ليس الآن سأخبرك فيما بعد.. أنا الآن سأنزل إلى بهو الفندق لأنه لدي موعد هام مع أحد الموكلين الذي كلفني الأستاذ نجيب بلقائه..

لم أستوعب إجابته، ولم أستوعب كل ما يحدث من حولي، ولا فكرة وجودي بهذا الفندق الفخم، وبهذا الجناح الفاخر، واقفة أمام شرفة تطل على نهر. عندما خرج أحمد إلى موعده وجدت نفسي رابضة أمام النافذة، أرقب منها النهر البعيد. تملكتني رغبة ملحة في الركض والإلقاء بنفسي في النهر. عاد أحمد وطلب مني أن أجهز نفسي ليصطحبني معه إلى موعد عشاء مع موكلين آخرين. لم أجرؤ على سؤاله عن هوية موكليه يومًا. وقلت في نفسي لا داعي لذلك طالما سألتقيهم بنفسي في العشاء.

على الساعة السابعة مساء، خرجنا من الجناح متوجهين إلى المطعم، رحب بنا النادل الرئيسي، ثم قادنا إلى الطاولة المحجوزة على شرفنا، والتي كان ينتظرنا بها رجل أنيق في العقد الثالث من عمره، رفقة سيدة شابة، شديدة الجمال وفي قمة أناقتها. رحبا بنا بحماسة شديدة، وقال أحمد وهو يعرفنا بعضنا على البعض..

– هذا الدكتور نور الدين نائب السفير المغربي بإيطاليا.. وهذه زوجته الفنانة التشكيلية الإيطالية السيدة سيلينا..

ثم أشار إليَّ:

– وهذه زوجتي سوار..

جلست إلى جانب أحمد ومقابل سيلينا بعدما أزاح لي النادل الكرسي، ثم سألنا إن كنا نريد النبيذ نفسه الذي طلبه نائب السفير، أومأ أحمد برأسه بالإيجاب، ثم ناولنا قائمة الطعام. لم أعد أتخوف من قوائم الطعام، كما أنني أوصيت أحمد قبل نزولنا أن يتكلف باختياره وطلبه. فوضعتها أمامي، بينما أحمد تذوق الكأس الأولى من النبيذ وحلله بدقة، ثم أشار إلى النادل بيده بأن يسكب له كأسًا. تحدثنا في البداية عن أجواء السفر، وسألنا نائب السفير إن كنا أحببنا الفندق. كنت أصغي بتهذيب وأجيب بكلمات قليلة. لأنني لم أكن أتقن اللغة الفرنسية كما يتقنها أحمد. فنائب السفير وزوجته الإيطالية فضلا الحديث بالفرنسية، لذلك شعرت في ذلك الموعد أنني معزولة ومهمشة، وغير مقصودة بنقاشهم وحديثهم. بعد أن انغمسوا في لب الحديث، سكب أحمد كأس نبيذ أخرى من دون أن ينتظر من نائب السفير أن يدعوه لذلك. كان نائب السفير يصغي لأحمد بلباقة وباهتمام شديدين. ورغم أنني لم أفهم ما دار من نقاش باللغة الفرنسية جيدًا، إلا أني فهمت من طريقة حديثهما وبعض الكلمات أنهم يتحدثون عن أمور السياسة. تنبهت زوجة نائب السفير إلى شرودي، وسألتني بفرنسية تغلب عليها اللكنة الإيطالية:

– ما هو عملك سيدتي؟!

كنت أرتشف بعض الماء، وأجبتها بتوتر كمن يتهيأ لتقديم اعتراف بذنب ما..

– حاليًّا ليس لدي عمل!

أجبتها وعلامات الخيبة والحرج والإحساس بالدونية بادية على وجهي. فصاحت بقوة:

– لكن لا يعقل! كيف لامرأة في جمالك ألا يكون لديها أي اهتمام؟!

لم أعرف بماذا أجيبها. كنت أتمنى حينها أن يتدخل أحمد وينتشلني من ذلك الإحراج، لكنه كان منغمسًا بكل جوارحه في إقناع نائب السفير بأمور لم أفهم مغزاها. قررت الصمت بعد أن شكرت سيلينا على لطفها، وشرعت في الانتظار من انتهاء هذا العشاء الذي لم أستمتع به البتة. بعد انتهاء أطول ثلاث ساعات مملة قضيتها في حياتي، وأنا أجلس معهم تلك الليلة، أخذنا المصعد أنا وأحمد وتوجهنا مباشرة إلى الجناح للنوم، الذي أطبق أنفاسه علينا من تعب السفر فقط.

استيقظنا في الصباح الباكر، طلب أحمد وجبة الإفطار في الجناح. وبعد أن تناولنا الإفطار أخبرني أنه لن يعود باكرًا. وأنه يمكن لي الاستفادة من خدمة الجناح، التي توفر لزبائنها كل الكماليات الفاخرة، من تزيين ورياضة وسباحة وحتى ركوب الخيل. شعرت بتذمر كبير. فبعد قضاء ليلة مملة مع أشخاص لا أشبههم ولا يشبهونني في شيء، ها هو يخبرني أنه سيتأخر ولن يعود إلا بعد منتصف الليل.

قضيت ستة أيام بلياليها على نفس الوتيرة، أيام كانت متشابهة في

برودتها ومللها، وليالٍ في عشاءات عمل مملة، يتغير فيها الأشخاص بينما لا يتغير في أجوائها شيء. حتى عندما أكمل جولة عمله في فرنسا ومدريد، كنت قد تجرعت ما يكفي من الملل والتذمر، وذلك جراء البقاء بمفردي بين جدران الجناحات الفخمة. لا النهار كان يرأب صدع الوحدة، ولا الليل كان يرأب صدع الحنين. كنت أسأل نفسي، ما دامت أحلامي لا تنفذ إلى الشمس، وكل الطرقات تقودني إلى ذات الجحر، ما دامت خطواتي تتعثر، ولا زلت أتخبط في تيه ألف عام أو أكثر، وقد تهدمت جهاتي الأربع، هل آن لي بلوغ اليقين بأن كل شيء مزيف؟ وبأني أنا نفسي محض أكذوبة؟ وأن كل من أعرفهم لهم في الوهم حياة؟ فهل آن الأوان لي أن أقر عينًا ككل الواهمين والبلهاء، بل كسيدة الواهمين والبلهاء؟ كانت الحيرة تشغل بالي. لا أفهم لماذا اصطحبني معه إلى هذا السفر المشبوه والمبهم، إن كان سيظل طوال اليوم منشغلا بلقاءاته الغامضة، وبمعارفه الغامضين، ويتركني وحيدة أتجرع آلام الحنين والحيرة.

في اليوم الأخير، بعد أن أمضينا أسبوعًا نتنقل فيه من روما إلى باريس ثم مدريد، طلب مني أن يصطحبني معه إلى أرقى محلات مدريد لشراء بعض العطور والملابس، وقال لي وهو يريد أن يتدارك موقفه معي:

– هيا يا سوار سأصطحبك لأرقى المحلات التجارية بمدريد لتشتري كل ما تريدينه..

قلت ببحة حزن ودون عدائية وبشيء من البرود..

– لم آتِ معك إلى هنا للتبضع!

اقترب مني وأخذ يداعب جبيني، ثم أمسك ذقني ورفع وجهي إليه، وقال متوسلًا..

– أرجوك يا سوار.. لا تضيعي فرحتي أريد أن أسعدك.. أريد أن أشتري لك أرقى الملابس وأفخم العطور.. أريد أن أعوض لك بقاءك وحدك طوال انشغالي بلقاءات ومواعيد العمل.. أرجوك!

حينها تأكدت بأن إحساسه بمعاناتي أمر ميؤوس منه، فقررت كتم غضبي وابتلاع دموعي، وتأجيل ثورتي حتى لا أفسد عليه فرحته. فسايرته فيما يشتهيه ويريده. خرجنا يومها من الساعة العاشرة صباحًا حتى السابعة مساءً. زرنا فيها مدينة مدريد التي تحتضن العديد من المعالم السياحية والكنوز الثقافية. فكنا بين تبضع وآخر، نعرج على بعض المتاحف التي تصادف طريقنا. زرنا متحف ديل باردو، وكذلك متحف رينا صوفيا. كما استرحنا بعد وجبة الغداء بحديقة ريتيرو الجميلة، والتي تمتد على مساحات واسعة، تتوسطها بركة كبيرة. وعندما انتهينا من التبضع عرجنا على ساحة بلازا دي سيبيليس، التي تضم العديد من المباني ذات التصاميم الجميلة، والتي تمزج بين الطابع الكلاسيكي والعصري، تتوسطها نافورة تحيط بنصب رمز الخصوبة اليونانية، التي تم نحتها من الرخام الأرجواني سنة 1780. جلسنا بمقهى أمام ذلك النصب التذكاري. كان الكلام بيننا قليلًا، لا يتعدى بعض الملاطفات

والمجاملات. كنت أشعر بتعب عميق يخنق أنفاسي، وكنت أعدد الدقائق لننهي هذا السفر الذي توخيت منه رحلة إلى عالم العشق والشجون، فلم أجد ضمن طياته غير الوحدة والحزن.

عدنا أخيرًا إلى الوطن. بعد أسبوع من السفر، وصلنا إلى البيت متعبين. توجهنا مباشرة بعد إدخال الحقائب إلى غرفة النوم. كان أحمد مرحًا رغم التعب. نزعنا ملابسنا وبعدها وجدنا نفسينا ممددين على السرير جنبًا إلى جنب، عاريين ومنهكين بدون حراك. كان الليل قد حل. سألني إن كان بإمكاني أن أضبط له المنبه على الساعة السادسة صباحًا، أخبرني أنه عليه الاستيقاظ باكرًا لإتمام بعض الأعمال التي بدأها حين كنا مسافرين، ثم أمسك بيدي وغط في نوم عميق. أفلت يدي من قبضته بصعوبة، لم يترك لي الفرصة لأناقشه في موضوع التحاقي بالجامعة. سحبت يدي من قبضته بحذر شديد حتى لا أوقظه. استدرت على جنبي الأيسر لأحاول استدراك النوم لكنني لم أستطع. قلت في نفسي:

– لقد سئمت من مهادنته وإرضائه.. آن الأوان لأفكر في حل لمشاكلي..

فشئنا أم أبينا، فإننا عندما نحاول إرضاء الآخرين، حتى ولو كانوا أقرب الناس إلينا، فإننا بذلك نتنازل عن مساحة شاسعة من أنانا، نتلاشى ونتهاوى شيئًا فشيئًا، لنصبح الصورة التي يريدونها، دون أن ننتبه أن هؤلاء الآخرين، مهما كانت التضحيات التي نقدمها كبيرة، فسيظلون في

تقلب مستمر، وهو ما سيدفعنا دومًا لأن نكون عبيدًا لعنجهية وغطرسة مزاجهم المتقلب والمريض.

– من البديهي أن لا يكون أحد على استعداد للقبول بهذا اللامنطق.. فما الذي يجبرني أنا على القبول به؟!

أدركت أنني ظلمت أناي كثيرًا، عندما أسأت إليها باسم الحب. أخشى عليها من التلاشي كلما تذكرت أنني امرأة، امرأة سلمت رقبتها لمقصلة حب باهت. امرأة كلما كافحت من أجل الحرية كانت فرصتها في جني الاستعباد أكبر.

بقيت الليل بطوله مستيقظة أتقلب تارة على جنبي الأيسر وتارة أخرى على جنبي الأيمن. أحسست أنني أضعت نفسي في متاهات كثيرة ولا أستطيع العثور عليَّ. بدأ ظلام الليل يزحف على روحي أمواجًا عاتية من الخوف والوحدة والصدى والهباء والهراء. كنت في حاجة إلى أن تشرق الشمس لتذوب ثلوج مخاوفي، وتطمس آثار أحزاني ووحدتي. وكأن الحياة كانت بالنسبة لي في تلك الليلة حلمًا، أو رؤيا أتوق لهما طوال الليل ولا أنالهما في الصباح.

في اليوم التالي استيقظت متأخرة جدًّا. ولم أشعر حتى برنين المنبه، الذي ضبطته والذي غالبًا ما استيقظ عليه أحمد وخرج باكرا. ذهبت إلى الحمام غسلت وجهي وأسناني، نظرت إلى المرآة، بدا وجهي كئيبًا وأكثر

حزنًا من أي وقت مضى. كانت ليلة الأمس قاسية عليَّ جدًّا. كنت في مزاج سيئ. تناولت فطوري ومشاعر الوحدة والتعاسة والاستياء تخيم عليَّ. لم أتزوج أحمد لأنجب الأطفال، ولا طمعًا في جاه أو مال، تزوجته فقط من أجل الحب الذي كنت أظن بأنه سيحررني من القيود التي قيدني بها والدي. لكنني اكتشفت أن الحب وحده غير كافٍ لأنعم بالحرية وبالسعادة التي كنت أنشدهما. لذلك قررت أن أفاتحه في موضوع التحاقي بالجامعة بمجرد عودته إلى البيت. قضيت النهار بطوله في ترتيب البيت وتنظيفه، بعدها صرفت بعض الوقت في مشاهدة التلفاز، ثم دخلت إلى المكتب لأشغل نفسي في القراءة، رغم أنني لم أكن في مزاج يسمح لي بذلك. كل ما كنت أريده هو أن أشغل نفسي عن التفكير ريثما يعود أحمد. كان الوقت يمر عليَّ بشكل بطيء، كنت في حالة يرثى لها، ولم أستطع إعداد وجبة العشاء، ولا حتى تغيير ملابسي. بل عجزت حتى عن تمشيطي وترتيب شعري. بعد حين تفاجأت من عودة أحمد باكرًا على غير عادته. كان متوترًا ومبتهجًا في نفس الآن. دخل إلى المنزل مزهوًّا بنفسه وهو يناديني بصوت مرتفع..

– سوار.. سوار.. أين أنت؟

كنت جالسة على المقعد وأحمل كتابًا فوق ركبتي، دخل عليَّ وهو يشير إليَّ بالوقوف وقال:

– انهضي بسرعة يا سوار.. غيري ملابسك.. فنحن مدعوان إلى حفلة مهمة..

لم يعر اهتمامًا لمظهري، ولم تثره حالتي المزرية التي وجدني عليها. فلأول مرة بعد زواجنا، كنت لا أزال بثياب النوم، ولم أضع حتى أحمر الشفاه كعادتي. حسبت أول الأمر عندما سمعته يدخل المنزل أنه جاء ليحدثني، كما وعدني في أن نجد حلًّا، لأخرج من عزلتي ومللي اللذين أعيش فيهما. لكن سرعان ما اكتشفت أنه يريد أن أصير مجرد إكسسوار في حياته المزدحمة بطموحاته وأحلامه. أو كما كان يريدني والدي سوارًا يزين معصم حياته، شعرت أن لعنة اسمي تلاحقني، كنت أشعر بالضعف أمام الجميع، لكن يجدر بي الآن أن أتعلم كيف أكون قوية. أجبته بعصبية وتوتر..

– لن أذهب معك إلى أي مكان!

كنت أنوي فعل أي شيء يمنعني من التراجع إلى الوراء، كنت أنوي تدمير ماضيَّ، والبحث عن حاضر جديد، أكون فيه امرأة يحترم الآخرون وجودها، وحريتها في الاختيار والعيش باستقلالية تامة، بعيدًا عن كل القيود، خاصة تلك التي تقيدنا باسم الحب. لكن أحمد انحنى ساجدًا حتى الأرض، وأمسك بيدي وقبلها، ثم قال لي بنبرة كلها حنان:

– أرجوك يا سوار.. هذه حفلة مهمة جدًّا بالنسبة لي.. إنها البوابة التي سأعبر من خلالها إلى تحقيق كل أحلامي وطموحاتي.. فأرجوك! أريدك أن تكوني معي الليلة لأن الأمين العام للحزب أخبرني أنه سيعد لي مفاجأة وأكد على حضورك معي..

كان يقنعني بأحلامه التي كنت أعرف جيدًا أنها ليست أحلامي، لكن حينها ما من حيلة لأصد بها مد هذا الإقناع المغلف بالحب، تمنيت حقًّا لو أنني امرأة مجبولة على العصيان، غريب أمر هذا الحب! له سلطة سحرية على جعلك تقتنع بالأوهام، وتتنازل في لحظة تكون فيها مصممًا على الرفض. وغريب أمر هذا الرجل، إنه بارع في إخضاعي. يعرف دائمًا كيف يأخذ ما يريده مني دون أن أشعر بذلك. لقد نجح في إقناعي بالذهاب معه لحضور ذلك الحفل الذي يقيمه الأمين العام للحزب بالفيلا التي يقطنها.

تهيأت للحفل دون تبرج. وضعت من كل شيء أقله وارتديت أبسط فستان لديَّ. رافقته مرغمة فقط، لم أكن أريد قطع كل الخيوط التي حكنا بها ظلال اليقين لئلا تصدأ علاقتنا.

وصلنا أخيرًا إلى الفيلا الكبيرة الموجودة في طريق أزعير، أحد أرقى أحياء مدينة الرباط. استقبلنا الأمين العام للحزب شخصيًّا. وجدنا داخل الفيلا سميرة وكمال أيضًا، ألقينا عليهما التحية. بدا لي كمال وسميرة في تعاملهما أكثر برودة خاصة مع أحمد. لقد غابت تلك الألفة والحرارة التي كان شرارها يطير بمجرد لقائهما به. مررنا أيضًا على أشخاص لم أكن أعرفهم، فكنا نكتفي بإيماءة من الرأس لهم. كنت أمقت ارتياد الحفلات، لا يسعني أن أفهم ما يدعو الناس إلى الاستمتاع بها، لا أدري كيف يتحملون هذا الكم الهائل من المجاملات الزائفة والنفاق الاجتماعي

الصارخ، والتباهي الملعون. كانوا يتأنقون، يتبرجون ويتفاخرون بأنهم مدعوون إلى هذا الحفل، وكأنهم مدعوون إلى الجنة! كان الغرور باديًا على معظمهم. فالغرور عورة لا يمكن سترها. فالبعض منهم لا يمتلك حتى القدرة التي تجعله يكتشف أنه وضع من المساحيق أكثر مما يتحمله وجهه. تساءلت مع نفسي:

– في الغالب لا تنجب العاهرات.. فمن أين جاء كل هؤلاء السياسيين الأوغاد ورجال الأعمال المتملقين؟!

بعد لحظة من دخولنا، انشغل أحمد بتحية عدد لا متناهٍ من الأشخاص، الذين كان يعاملهم على أنهم معارف وأصدقاء مقربون. كنت أبادلهم التحية رغم أني لم أكن أعرف أحدًا منهم. كان أحمد يعرفني بهم، ويقدمني على أنني زوجته. سئمت من إلقاء التحيات، فانزويت متذمرة واقفة بمفردي. فجأة وبدون أن أشعر اقترب مني الأمين العام للحزب، ابتسم وقال:

– سعدت بمجيئك سيدتي! لقد أكدت على أحمد ألا يحضر الحفل إن لم يصطحبك معه..

أجبته بارتباك وبابتسامة مصطنعة:

– شكرًا سيدي! هذا لطف منك..

اقترب مني أكثر إلى درجة أحسست فيها بأنه يحاصرني في تلك الزاوية وقال:

– نحن الآن بمفردنا.. دعينا من الرسميات.. هذه بطاقتي.. فأرجو أن تتصلي بي في أقرب وقت ممكن..

شعرت بارتباك شديد وإهانة كبيرة. كنت كمن قدم خدمة رخيصة ويتقاضى عليها أجرًا متدنيًا. التفتُّ يمينًا ويسارًا وكأنني أستغيث، بحثت عن أحمد لكنني لم أجده من حولي. فقد كان منغمسا في الحديث والتملق لبعض من المدعوين الذين يدعي أنهم أصدقاؤه ومعارفه. فجأة وقعت عيناي على كمال، الذي رمقته يتفحصني، نظرت إليه كمن يطلب النجدة، فاستأذنت من الأمين العام وقلت له بخوف وارتباك شديدين دون أن آخذ البطاقة..

– اعذرني سأنصرف حالا!

كان شرار الغضب يتطاير من عينيه. لم يستسغ صدي له. لأن أمثاله من السياسيين تعودوا على الحصول على كل الأشياء التي يسعون وراءها ويرغبون بها باستخدام المال والسلطة. لكن الرغبة وحدها ليست كافية لصناعة العلاقات العاطفية الحقيقية، حتى ولو اجتمعت سلطة ومال العالم بأكمله على إخضاع قلب واحد لما استطاعوا.

توجهت نحو كمال واقترب مني فور أن رآني متوجهة نحوه وقال:

– ما بك يا سوار؟! وجهك يبدو مصفرًا!

حاولت التحايل عليه وقلت:

– لا شيء! أنا فقط لا أحب حضور هذه الحفلات!

قال مبتسمًا ومبررًا وجوده بالحفل:

– أنا مثلك يا سوار لا أحب ارتياد هذه الحفلات.. لكن الصحيفة التي التحقت بها مؤخرًا للعمل كصحفي كلفتني بتغطية هذا الحفل..

سألته وأنا أحاول أن أداري ارتباكي:

– وأين هي سميرة؟

أجابني بضحكة صاخبة:

– سميرة! ألا تعلمين أنها تعمل مصورة صحفية معي في نفس الصحيفة؟ وهي من وجدت لي عملًا معها.. الآن أكيد أنها مشغولة بتصوير بعض الأشخاص المهمين الذين سيظهرون غدًا على الصحيفة..

قاطعته باستغراب:

– ألم تعد سميرة ترتاد كلية الحقوق؟!

– بلى! لكنها تعمل في نفس الوقت لكي تستطيع تدبر مصاريفها الشهرية..

عندما بدأت بالدردشة مع كمال أحسست أن التوتر قد خف قليلًا، وفي اللحظة التالية بدا لي أحمد قادمًا وهو يومئ لي بيده. نظر كمال إليَّ وقال:

- يبدو لي أن أحمد يريدك!

استعدت رباطة جأشي وأنا أخفي غضبي وتوتري في سري، اقتربت من أحمد وقلت له بنرفزة شديدة:

- أين كنت طوال هذا الوقت؟

أجابني وعلامة الفرح تعلو محياه..

- سأخبرك لاحقًا.. الآن طلب مني الأمين العام للحزب أن أنادي عليك لتكوني حاضرة وهو يخبرني بالمفاجأة..

اقتربنا من الزاوية التي كان بها الأمين العام محاطًا بألمع الشخصيات، ففتحوا لنا المجال للاقتراب أكثر منه، والذي بدأ بتمرير عينيه على جسدي، وكأنه يعريني بنظراته. وفي خضم خطابه المرتجل قال وهو يتوجه نحو المنصة المنصوبة لهذه المناسبة:

- سيداتي سادتي.. كما تعلمون أعلنت بلادنا عن تنظيم انتخابات تشريعية في الشهر المقبل.. وسيدخل حزبنا غمار هذه الانتخابات كغيره من الأحزاب الوطنية.. وإيمانًا منا بأهمية التواصل مع الشعب الذي نتمنى أن يختار ويصوت على الحزب الأفضل.. وقد قرر حزبنا تعيين الأستاذ أحمد الوديني مكلفًا بالحملة التواصلية لحزبنا..

صمت قليلًا وترك الفرصة للحاضرين للتعبير بالتصفيق، واغتنم

هو فرصة ليوجه نظره إليَّ ويومئ لي برأسه، مفصحًا عن هديته. حاولت تفادي نظراته بابتسامة وانحناءة من رأسي معبرة عن شكري، ثم وجهت نظري نحو أحمد لأجده غير مكترث بي، ومنغمسًا في تحية الحاضرين بابتسامة نصر رسمها على محياه. فاسترسل الأمين العام للحزب في خطابه بعد أن طلب من الحضور وقف التصفيق..

- ونظرًا لما لمسناه في السيد أحمد من أهلية ووطنية لتحمل هذه المسؤولية، نتمنى له التوفيق والسداد بإذن الله..

كنت أنتظر أن أرمق نظرة حب من أحمد تجاهي، فما لمحت سوى سميرة وهي تقتنص صورًا لي، حاولت أن أشير لها بيدي فتجاهلتني، ثم حولت نظري نحو أحمد لأجده لا زال يحافظ على تلك الابتسامة وهو يشير فخرًا بقبوله لهذه المسؤولية، كثور إسباني يساق إلى مضمار المصارعة. في تلك اللحظة، دب في خاطري الشك والريبة. بدأت تنهال عليَّ التبريكات والتهاني من الحاضرين، ويدَّعون الفرحة بنيل أحمد لهذا المنصب. فبدا لي كل من كمال وسميرة غير راضيين عن الأمر، كانت علامة عدم الرضا بادية على وجهيهما. وأنا في خضم تلك الدوامة من الشك، دنا مني الأمين العام للحزب وربت على كتفي، وقبلني على وجنتي وهو يدعي تهنئتي وهمس لي:

- سأحصل عليك مهما تهربت مني..

ثم توجه نحو أحمد بابتسامة شيطانية عريضة، وكأنه لم يقل لي شيئًا. أخافني هذا الوغد كثيرًا، وكلامه مع أحمد كان فيه شيء من الموضوعية. تبًّا لهذا الوضع، لا يخلو كلام الأوغاد من الموضوعية، فالوغد يعرف دائمًا كيف يضع أصبعه في جرحك. في وسط ضجة الحفل، لاحظت أن كمال وسميرة غادرا دون أن يهنئا أحمد، بل وحتى دون أن يسلما عليَّ. لم أستطع البقاء في تلك الحفلة أكثر من ذلك. كان كل شيء مشبوهًا من حولي، والأفكار والشكوك تمر في فكري دون توقف. أحكمت قبضتي على أحمد وهمست في أذنه بعصبية مغرضة:

- حان الوقت للتحرك..

أحس بأنني غاضبة جدًّا، وأنه من الأفضل أن يستأذن لنرحل. نظر إلى ساعته وادعى بأنني متعبة ومريضة جدًّا، وقال للأمين العام الحزب..

- شكرًا سيدي على ثقتك وتشريفك لي بهذا التكليف.. وصراحة أود لو بقيت معكم لوقت أطول.. ففي جعبتي أفكار كثيرة أطرحها عليك بخصوص مرحلة الاستعدادات للانتخابات.. لكن سوار متعبة جدًّا ولقد تخطينا موعد نومها كثيرًا.. ويجب أن تتناول بعض الأدوية في وقتها..

أجابه الأمين العام للحزب بمكر شديد وبكل برودة..

- لا عليك يا بطل.. راحة السيدة سوار هي من أولوياتنا أيضًا..

ابتسمت ابتسامة مصطنعة وقلت في نفسي..

– لا بأس! أحيانا علينا أن نحترف الصبر على أعدائنا ريثما نفرغ من نزال أنفسنا!

ثم انصرفنا مباشرة بعد أن استأذناه بالمغادرة. دخلنا إلى البيت، وذهبت بعجل نحو غرفة النوم والغضب يجعلني أكثر اضطرابًا وتوترًا. لأنني فكرت أثناء الحفلة بعدم البوح لأحمد عن تحرش الأمين العام بي، حتى أستوضح قراره بشأن عودتي إلى الدراسة، وحتى لا أكون سببًا في ضياع أحلامه التي وعده ذلك الوغد بأن يساعده في تحقيقها له. وقررت أن أواجه أحمد أولًا، لأنني لم أعد أقوى على العيش معه في جو يلفه الغموض والشك. تبعني هو إلى الغرفة، والصمت المزعج الذي سبق عاصفة غضبي تأجج من ارتباكي. كنت أعلم أنه غير راضٍ عن تعكير فرحته بالرجوع باكرًا إلى البيت. صوبت نظراتي التي يتطاير منها شرار الغضب نحوه وصحت في وجهه.

– اسمع يا أحمد! لن أسألك عن معارفك ولا عن مصدر نقودك.. كل ما أريده هو أن تفهم بأنني لم أعد قادرة على تحمل هذا الوضع! ولن أرضى بعد اليوم على نفسي أن أكون مجرد شيء ثانوي مركون على جانب حياتك وطموحاتك وأحلامك..

هز رأسه ببرودة السياسيين الماكرين وقال:

- هل تغارين من نجاحاتي يا سوار؟!

استفزني بسؤاله كما يفعل السياسيون المحنكون في مداخلاتهم التلفزيونية، حين يتلاعبون بالأبرياء المتحمسين أمثالي، ويجعلونهم يفقدون رزانة عقولهم في إجاباتهم الصادقة، وأجج حمم الغضب التي كانت على مقربة من الانفجار فصرخت في وجهه.

- كيف تجرؤ على قول ذلك!؟ أهذا ما أستحقه منك رغم الحب الكبير الذي أكنه لك.. لكن أتعلم، سأقول لك جملة واحدة.. الحب لا ذنب له.. أنا من أسأت الاختيار!

بقي متسمرًا في مكانه. فقد كانت كلماتي بمثابة السيف الذي جرح كبرياءه ورجولته. نظر إليَّ والشرار يتطاير من عينيه، وبدأ يجول كالثور الهائج في الغرفة. فجأة رفع المنضدة الصغيرة التي كانت بزاوية الغرفة وقبل أن يحاول رميي بها، سقطت على الأرض مغشيًّا عليَّ.

كنت أعلم أنه يحبني، وكنت أعلم أيضًا أنه يعلم بحبي الكبير له. لكن الحب ينزاح إلى التناقض ويتأرجح بين معضلتي الاختيار وسلطة القدر. أحيانًا أسأل نفسي، ترى كم من ملايين الخطوات التي قمت بها لأخطو نحو اختياراتي، التي كنت أظنها صائبة في هذه الحياة؟ وكم مرة دهست الأقدار والأوهام لأعبر إلى الحب، دون أن ألتفت إلى الماضي المتعثر في الجراح؟ وحده الحب كان يمضي بي غير آبه بالطريق وسالكيه، ووحدها

مرارة أيامي اللقيطة التي علمتني أن ليس للحب طريق مستقيمة، حتى ولو ظننا بأننا أحسنا الاختيار، ففي الطريق إليه سنجد منعرجات الأقدار لنا بالمرصاد، ليتشتت الحب على أول مفترق طرق يعترضنا في هذه الحياة.

لم أفتح عيني إلا وأنا بالمستشفى، جسدي كان ممددًا على السرير، والعدة الطبية في يدي وأنفي. التفتُّ فوجدت أحمد يجلس بقربي، وقال وكأنه يتأسف لي:

– أنت بخير يا سوار! عليك أن تصمدي.. ليس من أجلي فقط ولكن من أجل طفلنا الذي تحملينه في أحشائك..

اختلست النظر إليه واغرورقت عيناي بالدموع حزنًا وفرحًا.

– أنا حامل وسأصبح أما!

أحسست وكأني مترنحة على عتبة لحظة الغرق قاب حزن وفرح. كنت في البداية أرجو من الحياة حبًّا يتفوق على القبح واليأس ويعلن التمرد على الكره والأحقاد، أختار قدره بمحض رغبتي وإرادتي ويكون مفتاحًا لسعادتي. كنت أظن أن من قبلي لم تكن لهم فرصة الاختيار، لذلك هم يعيشون تلك التعاسة في حياتهم. وعندما اخترت أحمد رغمًا عن إرادة أبي وأمي، ظننت أن بذلك الاختيار أقترب من سعادة لم أسمع بها إلا في أساطير جدتي. واستيقظت على حقيقة أن الحب ليس وسيلة ندرك به

السعادة، وإنما هو غاية نستعين بشيء ما لإدراكه. وما كان الحمل إلا ذلك الشيء. فلقد جعلني أتذوق طعم الأمومة، وأنساني أحزاني وآلامي. لقد غير من نظرتي للحب والحياة، واكتشفت أن ما كنت أعيشه لم يكن حبًّا، وإنما كان تمردًا وتعلقًا بأشياء أخرى، كانت وسيلة للتخلص من ثقل ترسبات مجتمع منغلق على تقاليد بالية وأوهام وخرافات، انغمسنا فيها دون تفكير وليس دون اختيار فقط. فالاختيار نفسه إن لم يكن عن تفكير ووعي، قد يصبح مجرد نزوة سرعان ما تنقلب إلى روتين قاتل.

الفصل الخامس

حل شهر مايو ولم يبقَ لموعد ولادتها سوى ثلاثة أيام وخلالها كانت سوار متوترة ومترددة جدًّا، تقرر أمرًا في النهار ثم تعود عن قرارها هذا في المساء، وهكذا ظلت طوال الأيام الأخيرة من الحمل في دوامة من الحيرة والخوف والهلع.

في صباح اليوم الثالث لم تستطع سوار أن تبارح سريرها وبقيت تحت لحافها الأزرق عاجزة عن التحرك بسبب بطنها الكبيرة المنتفخة. ابتلعت سوار ريقها وهي تتأوه بصمت من شدة أوجاعها، وحاولت أن تستدير على جانبها الأيسر بعدما أحست بوخز شديد في أسفل ظهرها، وكأن أحدهم يجلدها بسياط وهي ممددة على أسفلت بارد فارغ من الحياة. كان جسدها مرهقًا وكانت تبدو في ثوبها السماوي اللون الفضفاض كمن يلبس جثة ثقيلة، وكأن الجسد لم يعد جسدها، كانت تشعر وكأنها أعارته

لشخص مشرد في آخر الشارع لتأويه.

بـدأت الانقباضـات والتقلصـات تشـن هجومًـا حادًّا عـلى رحمها، أحست برغبة ملحة في التبول والتغوط وخوفًا من أن تفعلها في السرير، اسـتجمعت كل قوتها وحاولت أن تنتفض على أوجاعها، رفعت قدميها المتورمتين. كانتا تبدوان كبالونـين منفوخين بغاز الهيليوم مزينين بعروق خضراء بارزة، وكأنها خطوط منقوشة عليهما. كان الألم فظيعًا حين وقفت عليهما، وبالرغم من ذلك حاولت أن تزحف عليهما ككل الأقدام الزاحفة نحو ما تبقـى من فرص للنجاة من قبضة الأقدار. كانت تتنفس بصعوبة فاقتربـت من النافـذة المطلة على الشـارع، كانت الطيور تغـرد خارجها في ذلك اليوم الربيعي المشـمس. وبعد أن اسـترجعت سـوار أنفاسـها، اسـتعادت ذاكرتها مشـاهد من الماضي، خيل إليهـا أن لحظة وقوفها أمام النافـذة الزرقاء ببيت والدها قد بعثت في هـذه اللحظة من جديد، وهي تقـف هنـا خاوية الوفـاض يضاجعها الوجـع بينما انـشرح صدرها لألم الحنين والتذكر، همست لنفسها كمن يريد التخفيف عن نفسه..

-ما ضر السنين أن ننسى نحن أو تخلد الذكريات دون أن نتألم حين نتذكرها؟!

أشعر وكأن ذاكرتي بئر عميقة أرمي بها دلوًا متصلًا بحبل أمنياتي، أرتشف منها ما يروي ظمأ قلبي حين أعطش، وأحيانًا ما يقتلني حنينًا، أتذكر الآن عندما كنت طفلة صغيرة، حملت أمي بأخي صالح. حينها

لم أكن أعرف شيئًا عن الحمل والكيفية التي يتم بها. كنت آنذاك فتاة بريئة جدًّا. فإذا سألت أمي كيف يأتي الأطفال إلى عالمنا، كانت تضربني وتوبخني وتخبرني أنه من العيب أن أسأل، ولا يحق لي معرفة ذلك حتى أكبر مثلها وأتزوج وأنجب أطفالي.

لم أتصور في ذلك الوقت أنه سيأتي عليَّ يوم سأشبه فيه أمي، التي سرعان ما انتفخت بطنها وكبرت وأصبحت ضخمة كالدب. حتى لم تعد تستطيع الحراك. أتذكر جيدًا عندما أحضر لها والدي الأخت ماريا الطبيبة الراهبة التي كانت تولد معظم نساء حينا، حين أخبرته أن وضعية الجنين غير سليمة وأن الولادة ستكون صعبة جدًّا، قد نفقد الأم إن لم ننجح في توليده، كنت أسترق السمع إليهما وقد قال لها والدي بالحرف:

– المهم أن تنقذي الجنين.

لم يكن ما سمعته حينها يبدو أمرًا سيئًا بالنسبة لي، لكن الأمر الآن مختلف، ماذا لو كنت في نفس وضعية والدتي وفكر أحمد كما فكر والدي، وفضل التخلص مني كي يبقى الجنين؟!

كان أخي صالح يسد المنفذ الذي سيخرج منه إلى هذا العالم بمؤخرته، وظلت أمي في المخاض طوال ثلاثة أيام. وكنت وشقيقاتي كريمة ولويزة نبكي عندما نسمع صراخها ليلًا ونهارًا، حتى ظننا أنها سوف تموت ولن تعيش بعد الولادة.

لم تبارح الطبيبة الراهبة الطيبة ماريا مكانها وبقيت بجوار أمي وبذلت كل ما بوسعها لإنقاذ حياتها وحياة الجنين. كانت حنونة جدًّا ورؤوفة بي وبأخواتي كانت تبتسم في وجهنا وكأنها ملاك من السماء، وبعثت في قلوبنا الطمأنينة حينما أخبرتنا أن أمنا ستنجو مع الجنين، لذلك ترجت والدي أن يسمح لها بنقل أمي على وجه السرعة إلى المستشفى الموجود بمليلية، وأوضحت له بأنه الحل الوحيد لتنجو الأم وجنينها. كان والدي مدركًا أن كلام الراهبة صحيح لذلك سمح لها بأن تقوم بما تراه مناسبًا.

عندما تذكرت سوار حياتها الماضية، أدركت أن الهلع لا يلائمها الآن. وأن عليها أن تواجه مخاوفها، وتطرد نوبات الماضي التي تنتابها، وأن تنسى في هذه اللحظة أمها وتتذكر فقط أنها سوار امرأة لا تملك غير أن تجلد الماضي لتواجه الحاضر والمستقبل في كامل قوتها، كان يخيل إلى سوار أنها امرأة ضعيفة. فهي إما خاضعة ومنصاعة إزاء واقعها أو مندفعة ومتمسكة بتلابيب الماضي والذكريات الباهتة.

آه.. تنهدت سوار، بعد أن ذكرتها حركة وركلات الجنين في أحشائها بما ينتظرها من عذاب. لم تعرف ماذا تفعل. فهي بعيدة عن أهلها وليس لها أصدقاء مقربون بالرباط ليكونوا معها في هذا الحدث المهم في حياتها، ولم تكن تعرف شيئًا عن الولادة، سوى أنها عذاب مصحوب بالوجع والكآبة. سئمت سوار الوقوف بالقرب من النافذة، كان وجهها شاحبًا ومتعبًا وكئيبًا، حيث كانت زقزقة الطيور تصلها مع خيوط أشعة

الشمس التي كانت تدفئ بطنها المنتفخة، خطر لها أن تذهب إلى المطبخ لتجهز طعام الغداء لأحمد، أغلقت النافذة وهي متذمرة من حالها، فهي الزوجة الحامل، المحبوسة بين أربعة جدران طوال النهار والمنهمكة غالبًا في أعمالها المنزلية، حتى وهي في الشهر التاسع من حملها.

كانت مسؤولة عن إعالة أحمد الذي كان يتغنى في جلساته وندواته التواصلية الحزبية بالمساواة بين الرجل والمرأة، لكنها رغم ذلك لم تتخلَ عن شغفها بتحقيق حلمها، ولم تزل تعتبر نفسها امرأة ستمكنها الدراسة والمعرفة من التعبير عن وجودها الإنساني. وفي عصر ذلك اليوم دخل أحمد متعبًا ومنزعجًا قليلًا، واتجه مباشرة نحو المطبخ حيث وجد سوار جالسة إلى المائدة في وضعية تشي وكأنها مهيأة للشجار، فقد عملت سوار فترة بعد الظهر كلها، وأعدت مائدة رائعة لأحمد، كانت تحاول أن تنسى أوجاع الحمل وثقل الوحدة في طهي الطعام رغم أنها لم تستمتع به، فقد أصبحت دائمة التجهم والعبوس، ولم تعد حياتها وعلاقتها بأحمد كما كانت قبل الحمل، فقد تدهورت علاقتهما بسرعة كبيرة، وكان أحمد يمضي الليالي خارج البيت معظم فترة حملها، بينما كانت تمضي هي معظم أوقاتها في القراءة، فقد كانت القراءة متعتها وشغفها وكل ما يسعدها ويدخل سعادة حسية غريبة إلى روحها، وكانت تريح أعصابها. كانت القراءة ملجأها الوحيد من واقعها ومن عالمها الخارجي.

راح أحمد يراقب سوار بطرف عينيه وهو يغمس قطعة الخبز في المرق،

ثم يمضغها ببطء، ومسح بنظراته على بطن سوار المنتفخ وجفنيها الذابلين من البكاء وعلى شفتيها المكتنزتين المتشققتين الشاحبتين، الشفتين اللتين لم تكن حمرة الشفاه الفاقعة تفارقهما، الفم الذي كان جاهزًا دائمًا للتقبيل والذي طالما قبله وتذوق من حلاوة ريقه. لكن الوضع تغير منذ حملها فهو لم يقبلها إلا نادرا بل إنه لم يضاجعها إلا مرات قليلة في الأشهر الأولى من الحمل، إلى درجة أنه خيل له، أنه لن يقربها مجددًا.

أرادت سوار أن تبدد أثر الصمت الذي كان سائدًا بينهما، ففتحت المذياع الصغير الموضوع على رف في زاوية المطبخ، كان موعد الأخبار المحلية:

– شاب يقتل أمه بمطواة أثناء نومها بعد الفجر بسبب عشرة دراهم.. والأمن يضبطه بعد أربعة وعشرين ساعة من الواقعة..

أحست سوار بالندم لفتحها للراديو، فالصمت الثقيل الذي كان يخيم عليهما أخف بكثير من مثل هذه الأخبار البشعة التي تثقل على النفس، وتمتمت في حيرة من أمرها وهي تتحسس بطنها المنتفخة:

– كيف لهذه البطون أن تحمل في أحشائها من سيقتلها من أجل عشرة دراهم.. يا إلهي! ما الحكمة من كل هذه البشاعة المنتشرة في هذا العالم الغريب؟

في هذه اللحظة لم يتوقف أحمد عن تناول الطعام، كان يتناوله بشراهة

وهو شارد الذهن، لا شيء يشغل تفكيره سوى العمل ومع من سيقضي ليلته لممارسة الجنس. فهو لم يستسغ كره سوار قربه منها، فبعد أن كانا يمارسان الجنس بشهوة جنونية كل يوم تقريبًا حتى وإن كانا متعبين أو ثملين، لم يعد الأمر كذلك منذ حملها، فقد انطفأت رغبة الجنس فيها رغم شعورها بالحب نحوه، ورغم أنها كانت تعتبر الجنس أمرًا مهمًّا في حياتها، يمكنها من التعبير عن حمم الحب التي تسكن قلبها. لكن سوار بعد الحمل خفت بريق جذوتها، وشعرت أنها لا تريد شيئًا في الوقت الراهن سوى التحرر مما تحمله في بطنها. لكن المشكلة هي أن أحمد لم يفقد رغبته الجنسية، وأحس بأن سوار أهملته وهجرته ولم تعد ترغب فيه، وهذا ما جعل فتح باب الخيانة يكون سهلًا بالنسبة له، ولمح لها كثيرًا بخصوص علاقاته الغرامية، لكن سوار لم تصرح له بشكوكها ولا بغيرتها، رغم أنها كانت تعرف جيدًا أن أحمد كان يتدبر أمره مع نساء أخريات، وخاصةً مع بعض شابات الحزب اللواتي كن يرافقنه في سفرياته التي كانت تحت غطاء أعمال حزبية وعلى نفقة الحزب. كانت رائحة الخيانة تنبعث من أنفاس أحمد ومن ثيابه وجلده وكل جسمه، وكانت سوار ماهرة في شمها وتمييزها في كل وقت. فقالت سوار وانقباضات الرحم عاودتها من جديد، لكن هذه المرة أكثر حدة..

– هل ستعود إلى البيت هذه الليلة؟ أم أنك ستضطر للمبيت خارجا؟

أجابها أحمد وقد بدا عازمًا على ألا يدع لها فرصة لتستفزه، لأنه لم تكن لديه رغبة في الشجار، فقال محاولًا تجاهلها..

- لا أعرف بعد!

انتفضت سوار في كرسيها، وازداد تجهم وجهها، وغزته تعابير تشي بألم فظيع. كان الألم يزداد بشدة، وضعت يدها بصعوبة في جيب ثوبها لتخرج منه أقراصًا مهدئة، وضعت قرصًا في فمها، ثم تحركت بصعوبة وببطء لتحضر كأسًا من الماء، لكنها لم تقوَ على النهوض من على كرسيها، فجأة احمر وجهها كأن أحدا صفعها بقوة عليه، لقد بدأت الأمور تخرج عن سيطرتها وأحست أن قلبها ينبسط وينقبض بعنف، وبغتة أطلقت صرخة قوية شقت الفضاء، بينما بقي أحمد متحجرًا في مكانه لا يعلم ما الذي يجب عليه فعله، صرخت سوار للمرة الثانية وقد كان الألم هذه المرة طاحنًا:

- أحضر لي سيارة الإسعاف يبدو أنني سأُلد!

اعترى أحمد شعور غريب ممزوج بالذهول والدهشة يحفر في تجويف معدته، انتفض من على كرسيه بسرعة كأنه برق بَرَقَ في السماء والتفت نحو سوار وقال لها بصوت مضطرب:

- لا تخافي ستكونين بخير.. سأرجع حالًا مع سيارة الإسعاف!

هزت رأسها ثم دفعتها الآلام إلى معاودة الصراخ من جديد والبكاء

بشكل هستيري. خرج أحمد بعد ذلك مسرعًا ولم يعد إلا بعد مرور ساعتين حين وجد سوار جالسة على أرضية الحمام بعد أن انفجر كيس الماء لديها وأوشكت على أن تلد لوحدها، ولحسن حظها وصل أحمد في الوقت المناسب ليقلها إلى المستشفى حيث ستلد.

عندما وصلت سوار إلى المستشفى، كانت تبكي وتصرخ في وجه أحمد أنها على وشك الولادة، أحضرت إحدى الممرضات كرسيًّا متحركًا وأجلستها عليه متوجهة بها على وجه السرعة إلى غرفة الولادة، وفي الممر الطويل الذي يؤدي إليها كان صراخ النساء اللواتي يتم توليدهن في الغرف المجاورة يتسرب مدويًا إلى مسامع سوار، فازداد خوفها واضطرابها. وهي على فراش الولادة سمعت الممرضة تقول للطبيبة المولدة إن عنق الرحم قد اتسع عشرة سنتيمترات بالكامل، فقالت لها بصوت مسموع:

– إذن لا داعي لوجودي هنا، سيخرج الجنين بسهولة..

غادرت الطبيبة غرفة الولادة، وبقيت الممرضة الرئيسية رفقة ممرضة أخرى التي قامت بفتح رجليها بقوة بينما تحاول الأخرى إخراج رأس الجنين من فرجها وهي تصيح في وجه سوار:

– كفي عن البكاء.. وادفعي بقوة ليتمكن الجنين من الخروج...

لكن سوار لم تستطع حبس بكائها ولم تستطع الدفع بقوة من شدة الألم،

وبعد عشرة دقائق من المحاولة بدأ رأس الجنين يظهر شيئًا فشيئًا، وعندما خفضت سوار رأسها لترى تلك المعجزة العظيمة. همست لنفسها وهي تحاول كتم أوجاعها وهي تلهث وكأن الذئاب كانت تعوي من خلفها:

– لم يعد بوسع هذا الجسد الهادئ إلا أن يكون ثائرًا منذ اليوم، فالإحساس الذي أيقظه هذا الجسد الصغير الذي يخرج من جسدي أشعل ثورة في داخلي، فهذا اللحم الآدمي الذي خرج من غياهب المجهول إلى هذا العالم جعلني في هذه اللحظة أشعر باضطراب شديد ولذيذ بنفس الوقت، كما لو أنني لست شخصا واحدا، بل شخصين أحدهما يتمنى لو أن هذه الأجساد تخضع لقوانين الطبيعة التي ستؤدي بها إلى التفسخ والانحلال والتجزؤ والتلاشي، والشخص الآخر يريد مقاومة هذه الفكرة والتمرد عليها ليستمد قوته من البقاء والاستمرار في الحياة إلى ما لا نهاية أي إلى الخلود الغامض والمجهول.

كنت فريسة هذا الصراع ضد نفسي وضد الأشياء التي تربطني بالحياة والموت طوال ساعة مغموسة في الألم ومرهونة بالدفع بهذا الجسد الصغير إلى الارتماء في أحضان الحياة. كان الألم يحرقني، ولكن صرخة ابني الأولى ورائحة الدماء التي خرجت معه أطفأت حرائق كل آلامي. وهكذا خرج هذا المخلوق الصغير باكيًا وكأنه يعلم مدى الشقاء الذي سيلاقيه في هذه الحياة. أخذت الممرضة طفلي بدون تردد ووضعته على صدري بعدما استسلمت لإعياء الولادة، وعندما لامس جلدي جلده،

شعرت أن ساكنا ما تحرك بداخلي واغرورقت عيناي بالدموع، فرؤية جسده الصغير والضعيف حرك عاطفة غريبة لم يسبق لي أن اختبرتها من قبل، كانت تسري في روحي كخيط ماء أو نور فهل هذا ما يسمونه بالأمومة؟!

نظرت إلى عينيه اللوزيتين الصغيرتين علني أجد جوابًا لسؤالي، لكنني لم أجد فيهما سوى حزمة أسرار يكفي أن أنظر شاردة إليه، وكأن الكون قد تلاشى لينبعث مرة أخرى في صورة جسد صغير وضعيف يفيض أسرارًا ولا يغيض، يجتمع فيه الزائل والباقي، جسد خرج من جسد، حين انتصبت اللحظة في رعشة حب وألم.

بعد أن انتهت عملية الولادة الطبيعية بنجاح، أغمي عليَّ من التعب والإرهاق، وعندما استفقت وجدت أحمد يجلس بجانبي وهو يحمل بين أحضانه ابننا الصغير، وحينها لم أتذكر شيئًا عن الولادة ولم أعرف شيئًا عن هذا المخلوق الصغير والجميل سوى قبلة طبعها أحمد على جبينه، والتي كانت معطرة برائحة مشاعر الأبوة الصادقة والدافئة. كان الصغير يبكي بشدة ولم نعرف أنا ووالده كيف نتصرف لإسكاته. خارج النافذة التي تطل على جناح الولادة لمح أحمد الممرضة التي قامت بتوليدي، فأشار إليها بالقدوم، نظرت إليه مستغربة ثم اقتربت مني وسألتني..

– ألم ترضعيه بعد؟ إن ابنك جائع لا بد من إرضاعه فورًا!

أخذت الممرضة الرضيع من أحمد ووضعته بين ذراعي، ارتبكت قليلًا وأحسست بتشنج في ظهري، فساعدتني الممرضة على أخذ الوضعية المناسبة لإرضاع الصغير، سكن التشنج قليلًا، وبشكل عفوي جدًّا أخرجت أحد ثدييَّ لأضعه في فم ابني، فجأة تملكني شعور غريب ومريب، فأنا لم أضع ثديي في فم ذكر سوى زوجي أحمد حينما كان يداعبهما لإثارتي حتى يهيئني للعلاقة الحميمة، كانت حلمتا ثديي منتصبتين وكأنهما تزغردان حينما بدأ طفلي الرضيع بامتصاص إحداهما، وشيئًا فشيئًا رحل هذا الإحساس الغريب حينما فاحت حقول الأمومة بالحليب الأبيض. كان أحمد واقفًا ينظر إلينا باندهاش وهو يبتسم ابتسامة بارزة، انتبهت الممرضة إلى شروده فقالت له:

– إن زوجتك وابنك بصحة جيدة.. ولاداعي لبقائهما في المستشفى.. عليك أن ترافقني لإجراء الترتيبات اللازمة لخروجهما..

انصرف أحمد رفقة الممرضة، وتركني أتأمل طفلي الصغير يداعب ثديي ويمتص حلمته بلهفة، كان أحمد يفعل نفس الشيء لكنني كنت أقرف من ذلك وكان الشعور بالإثارة هو من ينسيني قرافته، لكن الوضع مختلف الآن فأنا أحببت امتصاص الصغير لثديي الممتلئ، شعرت أنه أيقظ بداخلي امراة حائرة في مشاعرها، لكن نيران الحيرة أخمدت عندما رأيت حمرة خدوده التي أعلنت شبعه والتي أغرتني بقطف القبلات باشتهاء أمومي لم أستطع التحكم فيه. جلست في صمت مستمتعة بهذه اللحظة

النادرة، فاسحة للأمومة المجال لملء الفراغ الذي خلفته حيرتي، وعندما أحسست أنني تشبعت بعذوبة اللحظة، ضممت صغيري إلى صدري، ودندنت له أغنية ريفية كانت تغنيها لنا جدتي لننام، وأنا مدركة أن طيفها يستمع إلينا وأنها تشعر بالسعادة لقدوم الوافد الجديد.

انبثق الفجر، وكانت سوار قد قضت أول ليلة لها في بيتها مع طفلها الصغير، كانت ليلة مسهدة وطويلة لأن الصغير كان يوقظها كل ساعة أو ساعتين، إما لأنه جائع وإما لأنه يريد تغيير حفاضته أو لسبب آخر، بينما ذهب أحمد لاستكمال نومه فوق الأريكة في الصالة الصغيرة، مبديًا تذمره وانزعاجه من بكاء الطفل. بعد أن حضرت له سوار شرابًا من حبوب الياسمين والعسل، هدأ الصغير قليلًا وخلد إلى النوم من جديد، فتنفست الصعداء وحاولت أن تبحث عن النوم هي الأخرى، لكنها فشلت في ذلك وراحت تعد الثواني والدقائق بفارغ الصبر في انتظار النوم لكن من دون جدوى. فاضطرب ذهنها وتلاطمت أمواج أفكارها ببعضها البعض حتى اختلطت عليها ولم تستطع أن تستقي فكرة واضحة منها، فقالت في نفسها..

– ممَ أنا مضطربة؟ هل لأنني تحت سقف بيت واحد مع ذكرين؟ قد يكون ابني وزوجي متعادلين في نوع الجنس وفي التناوب على جسدي المرهق رغم أن غايتهما مختلفتين.. يا إلهي ما هذه الأفكار المخيفة التي اقتحمتني، ربما تعب الولادة قد أثر عليَّ كلا كلا يا سوار.. عليكِ أن

تتركي أفكارك حرة طليقة كي تسير في مجراها الطبيعي، ستظلين امرأة سواء كنت زوجة أو أمًّا!

و مضى الصوت يهتف في أعماقها:

– أنت سوار يا سوار!

من شدة الخوف والهلع انتفضت من سريري، وانتصب شعر رأسي وتصبب العرق على جبيني، وكأنني خائفة من أن يصل صدى الصوت مسامع طفلي فيوقظه من جديد. كان هذا الصوت الذي انبعث من أعماق ضميري هادئًا وثائرًا، كصوت أخي صالح حين كان يخرج للتظاهر ويصدح بصوته في الشارع، كان قويًّا مدويًا حتى خيل إليَّ أنه ليس صوت ضميري بل صوته. نظرت من حولي مذعورة فجاءني طيفه في أول ليلة أقضيها مع ابني وزوجي تحت سقف واحد، حاولت الاقتراب منه والإمساك به لكنه ألقى نظرة سريعة على طفلي الصغير وتوارى خلف الباب كالبخار، ثم عدت إلى السرير وتواريت تحت غطائه الناعم واستغرقت في النوم بعد أن ظننته مستحيلًا.

بعد أن مرت ستة أشهر على ولادتي لابني الذي اختار له أحمد من الأسماء اسم: غسان، تيمنا بالكاتب والصحفي الشهيد غسان كنفاني، ورغم فرحتنا باستقبال المولود الجديد وبعض المحاولات لإصلاح الأمور بيننا من أجل إخراج علاقتنا من هذا النفق المظلم إلى النور،

لم تنتهِ إلى النتيجة التي كنت أتوخاها. لم أكن متكيفة مع الأمومة لأنني لم أكن مكتفية بها، ظل شبح النقص يطاردني، لا أنكر أنني عندما حملت ابني الصغير لأول مرة بين ذراعيَّ ووضعت وجهه على وجهي، وقربته من قلبي كي أعرف أنه كان يعيش داخل أحشائي شعرت بشعور جميل ودافئ يسري في جسدي بأكمله، شعور ربما اختبرته عندما توليت تربية أخي الصغير صالح وفي الحالتين لم أكن جاهزة للأمومة، فقد فرض عليَّ أن أكون أمًّا لأخي في الماضي، أما الآن فقد فرض عليَّ أن أكون أمًّا لابني. لطالما رغبت أن أكون أمًّا، لكن في الطريق إلى بعض الأشياء التي نحب الحصول عليها قد تحاصرنا بعض العتمات التي نجترها في أروقة الحياة، وتبقى الروح بما تحمل من حب هي بقعة الضوء الوحيدة التي نتحسس بها هذه الطريق.

الفصل السادس

عندما تذكرت سوار حملها وتذوقها لطعم الأمومة، أوقدت السيجارة الأخيرة، وأدخلت النفس الأول كما تدخل المرأة أنفاس أول رجل تحبه في صدرها. أحست بلذة غريبة محملة بنسمات الليل التي تدخل من النافذة المفتوحة. شعرت بالإثارة تتملكها من جذور شعرها إلى أخمص قدميها، ودخول دوامة حسية كلما توغلت داخلها أكثر اقشعر جسدها وأحبت ذاتها ونفسها التي لم تعد مضطرة لأن تصطنع النشوة لإرضاء رجل لم يمنحها إلا الخيبة والجفاء. كان جسدها يسقط على الأرض ولا يلامسها، ثم مالبثت تمتطي كرسيها كما تمتطي فارسة صهوة الجواد، وبين السقوط والامتطاء فوهة بركان من الشهوات تنتظر لمساتها لتتفجر، كانت روحها تلامس جسدها لبلوغ الانفجار العميق، التفتت إلى المرآة وازداد تأجج لهيب نيرانها المشتعلة، كانت ترى نفسها في المرآة كما تود هي أن تراها، فتاة

يافعة مثيرة، يركع كل الرجال تحت محراب أنوثتها الطاغية، كان خيالها يلغي كل حدود مكانها وزمانها، ليأخذها إلى كل الأمكنة والأزمنة، أرادت الانتصار لعنفوانها أمام ناطحات الفحول السافر، كانت ترى الدفء في عينيها، واحمرار وجنتيها من تدفق الدم إليهما، وشفتاها ازدادتا طراوة من حلاوة ريقها، وثدياها كحبتي رمان كبيرتين آن آوان قطافهما، رضخت أخيرًا لرغبة الإخماد، وارتخى جسدها ارتخاء محاربة بعد نهاية المعركة، وأحست أن اللذة تحط بها على بر الأمان والاطمئنان. وقبل أن يختفي ضباب الصبح الباكر لتعلن الشمس عن نهار جديد، بدأ النوم يلاعب أهداب عيونها. كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحًا. لم تشأ إلا أن تسرق ساعتين أو ثلاثة من وقتها، لتنام حتى تستيقظ للتوجه كالعادة إلى المستشفى التي تعمل بها. أطفأت حاسوبها لتوقف الموسيقى، وانتزعت ما تبقى من ثيابها وتركتها على الأرض، متوجهة إلى سريرها الزوجي الكبير، الذي كانت تنام فيه وحيدة عارية. كانت تلتحف عريها في صمت، لتتذكر أنها وحيدة في ذلك البيت مثل كائن غريب لا يرى بالعين. فجأة ترامت إلى مسامعها ضحكات مسترسلة وصاخبة. لقد كان أحمد يتعمد الضحك والحديث بصوت عالٍ حتى تسمعه سوار وهو يتحدث مع إحدى عشيقاته على الهاتف، ويقول لها:

– لا تهتمي حبيبتي.. دعيني أضحك كما يحلو لي.. فأنت تعلمين أنني لا أهتم لأمرها.. فأنا رجل شبه مطلق وقد اتفقنا على تفعيل إجراءات

الطلاق بمجرد عودة ابننا من فرنسا.. ولهذا كوني مطمئنة من هذه الناحية..

ويسترسل قائلًا:

– أخبريني يا قطتي ماذا ترتدين الآن؟

كانت هذه الجملة كافية لتحتقر نفسها، وتحتقر تسعة عشر عامًا من الزواج والارتباط، عانت فيها من كل الذل الذي يمكن لامرأة الحصول عليه، وتحملت أمورًا لم تكن تستحقها.

في تلك اللحظة ترامى إلى مسامعها صوت أحمد:

– هل أنت متأكد من هذا الخبر؟

راح قلب سوار ينبض بشدة فقد استشعرت من نبرة صوته أنه لا يكلم إحدى عشيقاته، وتملكها فضول عارم لمعرفة سر المكالمة التي تلقاها في هذا الوقت من الليل. تسحبت نحو باب غرفتها لتخرج إلى الصالة الكبيرة حيث يوجد الهاتف الذي يمكنها من خلاله التنصت على مكالماته، اقتربت من موقع الهاتف بحذر شديد حتى لا يحس بها أحد، وحينما تبين لها أن لا أحد من الخدم يراقبها، دست إحدى يديها في جيبها لتقيها من البرد، بينما الأخرى تمسك بسماعة الهاتف التي وضعتها بحذر شديد على أذنها. وكما تكهنت فإن السيد نجيب كان على الخط يخبر أحمد بأنه سينال حقيبة وزارية في الحكومة القادمة، وأخيرًا حدث

ما كان أحمد يترقبه، لقد كانت بوادر استوزاره واضحة خاصة مع الإفراج عن المعتقلين السياسيين اللذين كان أحمد يترافع عنهما وإحداث المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان الذي عين فيه عضوًا، كان أحمد من النخب الجديدة التواقة إلى الانخراط في عملية تدبير الشأن العام، وكان مقتنعًا بأن الأوان قد آن لوضع حد لإنهاك نخب المعارضة الناجم عن البقاء عقودًا خارج رقعة التدبير الحكومي. أضاف المحامي نجيب وهو لا يزال على خط الهاتف..

– لمَ أنت مستغرب يا أحمد؟ أنا شخصيًّا لم أتفاجأ عندما سمعت الخبر من أحد قياديي الحزب المقربين من مراكز القرار.. وقد لمّح لي أيضًا أنه سنكون معًا ضمن الهيئة المستقلة لتعويض ضحايا الاختفاء القسري والاعتقال التعسفي المزمع تنصيبها في حالة ما تم تعيين الحكومة القادمة في ظروف جيدة!

خفق قلب سوار بعاطفة غريبة، فقد كانت لا تزال على الخط الآخر تسترق السمع، لقد فتك بذاكرتها حضور طيف أخيها صالح المختفي بمجرد ما ذكر المحامي نجيب ضحايا الاختفاء القسري، كانت تسترق السمع لمكالمتهما وقلبها يخفق بشدة، أما وجهها فقد شحب شحوبًا بارزًا. وكانت سماعة الهاتف على أذنها قد تجمدت من البرد القارس، لقد استغرقت هذه المكالمة وقتًا طويلًا وشعرت بالبرد يجتاح جسدها بأكمله، ثم استرسل أحمد على الخط قائلًا:

– هذا خبر جيد.. هذه الخطوة ستطلق آمالًا عريضة بتسريع دمقرطة الدولة.. رغم أن البعض سيراها مجرد مناورة من الملك لاحتواء معارضيه وتهيئة الأجواء لضمان انتقال سلس للسلطة إلى ولي عهده!

قاطعه المحامي نجيب بنبرة صوت منخفضة تشي بخوف صاحبها:

– هذا صحيح.. لقد سمعت أيضًا أن الملك مريض جدًّا.. وقد بدا ذلك واضحًا عندما ألقى خطابه الأخير.. أعتقد أن المسألة أكبر من مجرد التحذير من تعرض البلاد لسكتة قلبية.. فتقرير البنك العالمي بشأن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية يطرح بقوة ضرورة الإصلاح الشامل.. خصوصًا أن الدولة واجهت امتحانًا صعبًا مع امتداد الاضطرابات الاجتماعية التي شهدتها بعض المدن مؤخرا!

أدركت سوار أن هذه المكالمة ستدوم لمدة أطول مما توقعت، وكان البرد قد نال منها، ولأن تكهناتها كانت صحيحة لم تكن متحمسة للتنصت على أحمد إلى آخر المكالمة، وفي محاولة لمراوغة فضولها حملت الهاتف معها ونقلته من الصالة إلى غرفة نومها، رغم أنها قررت في قرارة نفسها أنها لن تعود للتنصت عليه. وضعت الهاتف على الكمود الجانبي، ودلفت إلى سريرها الكبير كمن يدلف إلى هذا العالم الكبير الغامض علها تتمكن من الخلود إلى النوم، لكن النوم لم يدركها وظلت أصداء مكالمة أحمد ونجيب تتردد في أنحاء غرفتها على مدى الليل بأكمله، لقد كانت واحدة من المكالمات التي ستظل راسخة في ذهنها مهما حاولت

نسيانها أو تناسيها، لأنها أحست أن الزمن يكرر نفسه وكأنه يصر على العودة بها إلى الوراء، لقد تلقى أحمد نفس المكالمة من نجيب لكن تلك المرة كانت لإخباره بحصوله على منصب مهم في المكتب التنفيذي للحزب، فانتقلا على إثرها للعيش في فيلا كبيرة تليق بمنصبه الجديد بحي الرياض الراقي، الذي لا يسكنه إلا أصحاب المناصب والنفوذ. ورغم أنها كانت تعيش شبه منفصلة عن زوجها الذي أصبحت له حياته الخاصة والمختصرة في اجتماعاته وقضايا موكليه المهمين وسفرياته التي كانت تمتد لشهور، تخلت سوار عن رغباتها وطموحاتها كي يتمكن ابنها الوحيد من عيش حياة مستقرة وطبيعية وهي تدرك أنه تحدٍّ كبير سيتضح مع مرور الوقت أنه شبه مستحيل. ورغم ذلك سعت سوار إلى ملء فراغ حياتها بمحاولة إقناع زوجها بأن يساعدها على إيجاد عمل لها، إن أرادها أن تستمر بالالتزام بواجباتها ومسؤولية تربية ابنها، التي أصبحت ترهقها بعدما أصبحت تقوم بدور الأب والأم معًا. ولم يكن لأحمد خيار آخر سوى أن يلبي طلبها لأنه كان مدركًا بأن زوجته وصلت إلى مرحلة متقدمة ومتفاقمة من الإحباط والاكتئاب، وأنها باتت تشعر أن وجودها في حياته أصبح بلا معنى، فكان مضطرًّا لأن يوافق على عملها، ولأنه كان يحب ابنه، ويتصور بأنه الشخص الوحيد الذي يجب أن يكون مثله ليرث ما يظنه مجدًا وسلطة، كان حريصًا على استقراره على الأقل حتى يحصل على البكالوريا ويتسنى له السفر وإكمال دراسته خارج المغرب.

لا زالت سوار تتذكر عودة أحمد من إحدى سفرياته الطويلة إلى المنزل لتناول العشاء، كان متعبًا وشق طريقه إلى غرفته بالفيلا الكبيرة بصعوبة، أحس بأنه غريب عن هذا المكان وأنه مجبر للعودة إليه على مضض منه. كان كلما عاد إليه اقتحمه شعور قوي بالذنب تجاه ابنه رغم أنه كان مستعدًّا لفعل أي شيء يسعده، لكن على طريقته الخاصة. ولو لم يكن ابنه موجودًا لكانت علاقته بسوار اتخذت مسارًا آخر منذ وقت طويل، خاصة عندما ظهرت "وصال" في حياته، لقد اهتمت بأمره وأشعرته بالاهتمام والحب اللذين فقدهما، ومنحته من شبابها وجمالها ودلالها ما يؤكد له أنه رجل مرغوب من امرأة شابة لا يتعدى عمرها عشرين عامًا من جديد، كان متيمًا بها ويقضي معظم الوقت معها حتى أنها ترافقه في جميع سفرياته، كانت شابة طموحة جدًّا خفيفة الظل وشديدة الذكاء والجمال كل هذا جعل منها شابة بارزة في الحزب وذات شعبية، لكنها لم تكن المتميزة الوحيدة بين أقرانها من شابات وشباب الحزب، ولولا دعم أحمد لها لما فتحت لها أبواب رئاسة منظمة شباب الحزب. كانت وصال بارعة في العزف على الكمان، هذه الموهبة التي ورثتها من والدها الذي هاجر إلى فرنسا وأصبح أستاذًا للموسيقى بأحد المعاهد بباريس التي ترعرعت فيها وعاشت فيها طفولتها ودرست بها العلوم السياسية. كان إعجاب أحمد بها يتسع أكثر فأكثر حتى لم يعد يشمل المجال المهني فقط، فبعد أن عينها سكرتيرة خاصة بمكتبه بدأ يدمن على رؤيتها وشيئًا فشيئًا

تدحرجت العلاقة بينهما إلى الاستلطاف والتودد والافتتان. في البدء، ظن أحمد أن علاقته لا تعدو أن تكون مجرد نزوة عابرة ككل علاقاته السابقة مع النساء، إلا أن فريسته هذه المرة تمتلك مقومات جسدية وعقلية قادرة على إيقاع صياديها في شباكها، فتنقلب الأدوار لتصبح صيادة بدلًا من أن تكون فريسة سهلة يمكن التخلص منها بمجرد ما إن يشبع صيادها. لقد استحوذت على قلبه وعقله حتى أنه تأخر عن موعد العشاء مع عائلته، لأنه كاد أن ينساه وينسى نفسه بين أحضانها، فبعد أن عزفت له على الكمان وهي ترتدي فستانًا أسود من الحرير، خصره ضيق عند الوركين وعنقه مفتوح حتى يكاد يظهر منه ثدياها الممتلئان والحلمتان الواقفتان وكأنهما رأسا رصاصتين توشكان على الخروج من فوهة مسدس، كانت تضع قرطين من اللآلئ الأصلية وتنتعل حذاءً أحمر ذا كعب عالٍ كالذي تستخدمه راقصات التانغو، ويتناسب لونه مع حمرة شفاهها الفاقعة، كانت مغرية وشهية في ذلك الفستان الملائم لطولها ولجسدها الممتلئ والمندفع والمشتعل بالشهوة، التي أيقظها أحمد بقبلاته الخفيفة على عنقها المعطر بأرقى العطور، كانت ترغب في العزف له بالكمان كما بجسدها الليلة بأكملها لكنها لم تتمكن من ذلك، لأن رصيد رغبة أحمد سرعان ما نفد وانطفأت شهوته عندما تذكر موعد العشاء مع أسرته، كان ضميره يؤنبه اتجاه ابنه الذي لم يره منذ أكثر من ثلاثة أشهر، وبينما هو شارد حملت عنه الخادمة حقيبة سفره وسألته..

– سيدي هل تريد أن أوقظ السيدة سوار، لقد تناولت العشاء مع غسان بعد أن تأخرت لأن لديه مدرسة في الصباح الباكر؟

تطلع أحمد إلى سقف غرفته وهو يفتح عينيه على اتساعهما من شدة التعب، ثم اتجه بنظره صوب الخادمة وقال:

– لا داعي لذلك، يمكنك الانصراف سأناديك إن احتجت شيئًا.

نزع ربطة عنقه وألقاها على الأرض وتمدد على الأريكة الفخمة الموجودة بزاوية غرفة نومه الكبيرة، ثم نهض بتثاقل بعد سماعه لطرق على الباب، اندفع ليصب جام غضبه على الخادمة لكن الفزع تملكه حين رأى أمامه سوار.

– ما بك؟ هل رأيت شبحًا أمامك؟!

اقترب منها وبصوت قرأت فيه سوار نوعًا من التودد وقال:

– حسبتك الخادمة.. لم يخطر ببالي أن تكوني أنت.. أخبرتني أنك أخلدت إلى النوم بعدما سئمت من انتظاري!

استفز كلامه هذا دواخل سوار التي حاولت أن تتفادى الشجار معه. لقد عاتبته بما يكفي، فأجابته وصرير الخيبة ينبعث من صوتها:

– فعلًا لقد سئمت من انتظارك!

صمت أحمد متطلعًا إلى عينيها ليختبر مدى احتقارها له، لكن

الصمت لم يعم طويلًا، إذ سرعان ما استدارت سوار ناحية الباب وأغلقته خلفها بكل ما أوتيت من قوة، وقد خيل لأحمد أن الباب قد أطلق صرخة استغاثة من شدة القوة التي دفع بها. وقف أحمد مذهولًا، ثم دون أن يحس وجد نفسه قد تبعها قبل أن تخطو خطوتها الأولى على درج السلالم، وبحركة مفاجئة ورشيقة اعترض سبيلها ومنعها من النزول، فوجئت سوار من تلك الحركة، بقيت جامدة في مكانها، فأمسكها بقوة من ذراعها اليسرى وأعادها معه إلى غرفته، وفي تلك اللحظة التي كان يحاول التنقيب عمَّا تبقى من الشهوة المضمرة في دواخله، اقتربا بخطوات يقودها التردد والارتباك. كانا يتطلعان إلى ابتكار طريقة تجعلهما يتقبلان ويتلاءمان من جديد، دون أن يتنازل أحد منهما عن كبريائه، شعرت سوار أن جسدها ينادي جسده، كانت ترغب في أن يتسلل إليها بالقبل علها تبهج جسدها المدمى بآلام الوحدة. ظنت أنه بحضوره وبمثول جسده أمامها قد يبعد عنها رهبة ظلال أشباح الوحدة، التي تحتفي بغيابه عنها. حاول أحمد تلبية ندائها في لحظة تلعثم فيها الشوق وتساقط فيها الكبرياء على قارعة الاشتهاء، وبأصابعه رمى بخفة خصلات شعرها التي كانت تغطي رقبتها إلى الجهة الأخرى من كتفها الأيمن ثم قبلها قبلة شقت جدار روحها لكنها لم تستطع أن تنفض غبار الحزن ورائحة خيانته عنها، ضمها بين ذراعيه وحاول فك أزرار قميصها الزهري الشفاف زرًّا زرًّا بخفة ودلال، ثم نزع عنها ثيابها ولم يبقَ سوى الجسد العاري الذي كانت

تغطيه. تقوقعت سوار على نفسها والخوف من الانزلاق في عتمة الوهم كان يسيطر على مشاعرها. أحست أنه لا يمكن لها أن تجاريه في هذه اللعبة المزيفة. لقد مرت سنوات دون أن يدنو منها. لم يعد جسدها تلك الشمعة التي تشعل شهوة الليل لتغريه، تلاشت كل جمار الشغف عندها ولم يعد لها أثر، لقد تناهى الحب في البعد ولم يعد من الممكن أن يعودا كما كانا، عندما قدما من الريف مفعمين بالحب والأمل والإخلاص. كان هذا إحساس أحمد أيضًا، لقد شعر أن هذا الجسد العاري الماثل أمامه غريب عنه وكأنه لامرأة أخرى غير التي أحبها، وسكب في حوض راحتيها شلالًا من الحب. شيء ما تغير فيها بعدما تناهى إلى البعد عنها، لقد انطفأ ذلك البريق المضيء في سماء عينيها، والذي كان يبعث فيه الرغبة بالتهامها من القبل، لم يعد وجهها جامحًا ولا شعرها الغجري الأسود الطويل يثري خياله الماكر المبتل بماء الشهوة، جمالها صار مرعبًا عندما مات قلبها ولم يعد لحبه مكان فيه.

– أرخت سوار كتفيها وأخذت قطع ثيابها المنثورة على الأرض، ثم ارتدتها بسرعة تحت نظرات أحمد، التي كانت باردة نحوها كما لم تكن يومًا، وتنفس الهواء بقوة كمن كان على ظهره حمل ثقيل فتخلص منه. لقد أدرك أن ما بينهما قد مات، لكنه لم يستطع أن ينكر بأنه يكن تقديرًا واحترامًا كبيرًا لزوجته وأم ابنه الوحيد، رغم أنه لم يعد يحبها كما في السابق عندما كان أستاذًا بالريف يحلم بالحرية والتغيير، لم يفهم لماذا أصبح شخصًا آخر

غير الذي كان إبان انتفاضة 1984، والذي كان يشهد له كل أبناء الناظور بإخلاصه وحبه لتلاميذه ولرفاقه، ثم بدأت الأسئلة تقتحم ذهنه:

– ألم أكن من الجيل الذي إذا عشق وفى؟ وحافظ على العهد والحب والصداقة؟.. هل أنا من تغير؟ أم الذين أحببتهم وأنفقت حبي وفرحتي عليهم هم من تغيروا؟ لم أعد أستوعب أحدًا منهم؟ ولم يعد أحد منهم يرغب في استيعابي؟!

– راحت الأسئلة تتقاطر كحبات المطر على ذهنه دون توقف، تجمدت يداه عندما بدأ ينبش في الماضي، كان غير قادر على التمييز بين ما الذي تغير في ماضيه وحاضره ولا كيف يخفف عن نفسه ثقل وجوده في حياة من يحبونه، كان يرغب في أن يبكي بين أحضانها ويقول لها: "لست لك يا سوار، لست لك بعدما قصوا أجنحتي وباعوها بأبخس الأثمان، فلم أعد طائرًا حرًّا يحلق في السماء تحت أشعة الشمس الحارقة، محتميًا بحبك المشرق، لست لك يا سوار ولست لي، كما أنني لست قادرًا أن أرسم على جدران قلبي جناحين ليرفرف حبنا من جديد، أصبحت الآن غريبة عني وكأنك مجرد اسم في لائحة طويلة من النساء."

– هكذا نام أحمد تلك الليلة دون أن يكون راضيًا عن نفسه، وغير قادر على أن يميز بين الخيط الذي يفصل المحبة عن الانحطاط.

– كانت سوار في غرفة نومها المجاورة يفصلها عن زوجها جدار سميك من الأسمنت وجدران من الخيبة والعزلة، ورغم ذلك كانت

تستقبل صدى كلامه، كانت قد وصلت إلى غرفتها محمَّلة بريح الرغبة، كان جسدها مثارًا لكنها ليست في حاجة إلى رجل لتلبي نداء جسدها، وقعت على سريرها الناعم مثل ريشة خفيفة تداعبها نسمات الليل التي كانت تدخل من النافذة الكبيرة حاملة معها شهوة بطعم كل الذين يسيرون في شوارع الرباط. كانت هذه طريقتها في إشباع رغبتها وهي لم يعد لها شيء تحتمي به سوى سقف جسدها، بعد أن أهملها الرجل الذي أحبته وهجر حضنها واستبدله به أحضان نساء أخريات. أحبت عريها وفجورها في أحضان الليالي، وهي تضاجع وسادتها الناعمة لقد حاولت أن تجعل من العالم مكانًا صالحًا للمتعة، وفي الصباح كانت امرأة متجلية بهية كشعاع شمس يخترق برودة الحياة.

– ها هما معًا على مائدة الإفطار، كانت سوار عالقة في متاهة من المشاعر المتناقضة، فهي تشعر أن هناك جزءًا منها لا زال يحب زوجها، ولطالما تملكها إحساس بالطمأنينة والسكون حين يكون متواجدًا معهما بالبيت، أما الآن فجزء آخر منها لم يعد يحتمل وجوده معها في نفس المكان، ربما لأنها تغيرت أو ربما لأنه هو من تغير حتى لم يعودا يعرفان بعضهما البعض. لذلك التجأت سوار إلى الوحدة التي لم تعد قادرة على تحملها ولو استمرت على هذا الحال فقد تصاب بالجنون أو ستقرر الانتحار، لا حل لمشكلتها هذه سوى الخروج للعمل كي تتناسى مشاكلها في دروبه، لذلك فاجأته بقرارها مباغتة:

– جيد أنك بقيت لتناول الإفطار معنا.. لأنني أريد أن أبلغك بشأن القرار الذي اتخذته بخصوص العمل..

– أومأ برأسه وكأنه يريد تغيير الموضوع، وقال:

– موفقة.. أين غسان لا تقولي بأنه ذهب إلى المدرسة دون أن أراه.. سأغيب هذه المرة لمدة ثلاثة أشهر، لديَّ مهمة حزبية هامة تندرج ضمن مهام الحزب في تعزيز دوره في الدبلوماسية الموازية..

– حلت غيمة مثقلة بالصمت فوق رأسها حتى كاد صوت الغضب الذي بداخلها يغرقها ويطفو عليه كالطوفان، وكسرته بنبرة حادة وقالت:

– دعك من هذا الكلام.. وأرجوك لا تمثل عليَّ دور الأب المثالي.. لا شك أن الأمر كان سيكون كذلك لو طبقت دبلوماسيتك الموازية على الاهتمام بابنك.. عوض قضاء الوقت كله في تملق رؤسائك في العمل.. والنوم في أحضان عشيقاتك.. ولكن لا جدوى من الحساب الآن لقد فات الأوان.. أعترف لك أنني نظرت في الماضي إلى زواجي منك على أنه أجنحة، وأنه من الممكن أن أحقق أحلامي بواسطتها عندما اقتلعتني من جذوري.. لكنني خسرت الاثنين معًا، جذوري وأجنحتي، ولئن استمررت في كذبة الزواج هذه فذلك من باب الحفاظ على الوعد الذي قطعته لك بشأن مصلحة ابننا متحملة أنانيتك الشاذة وغرورك وقسوتك.. على الأقل أنا وفيت بوعدي حتى الآن، أما أنت فلم تفِ بأي

وعد من وعودك لي.. لكن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذه الحالة.. أنت تعلم نوع المعاناة التي عشتها معك لتصل إلى ما أنت عليه اليوم.. على الأقل نفذ وعدك بشأن إيجاد عمل لي كممرضة، هذا أقل ما يمكنك أن تقدمه لي لتحفظ ماء وجهك ليس أمامي بل أمام ابنك هذا إن أردت أن تستمر في رؤيته!

– بقي أحمد صامتًا لبرهة من الزمن، وأجابها وقد احمر وجهه احمرارًا شديدًا من شدة الشعور بالغضب وبلهجة تخفي ذلك الغضب المستتر قال:

– إذن تريدين العمل..؟ وتتهمينني بالأنانية.. أليست هذه أنانية؟ ماذا تسمين تصرفك هذا؟ في الوقت الذي أعمل فيه من أجل ضمان مستقبل جيد لك ولابنك.. تريدين تشويه سمعتي والعمل بالمستشفيات؟

– قال ذلك وأسرع نحو باب الفيلا دون أن يكمل إفطاره. فاندفعت سوار وراءه وأمسكته من ذراعه وقالت صارخة في وجهه:

– هيا اذهب حيثما تشاء.. ولكن إذا لم تنفذ ما طلبته منك فتوقع مني الأسوأ!

– في الصباح التالي استيقظت سوار منتفضة كأن أحدًا لكزها في أسفل ظهرها عندما سمعت رنين جرس الهاتف، أخذت السماعة وجلست متكئة على أحد كوعيها أمام مرآتها التي عكست شحوب وجهها،

وبصوت مرتعش ومغموم من آثار النوم والعياء:

– آلو، من معي؟

– مرحبًا سيدتي، نحن قسم التوظيفات بالمستشفى العسكري بمدينة الرباط نريد التحدث مع السيدة سوار..

– اعتدلت في جلستها وحاولت طرد الذعر والهول اللذين تملكاها، وأحكمت بقبضتها بقوة على سماعة الهاتف:

– أنا سوار، كيف يمكنني خدمتك؟!

– نبلغك سيدتي أنه قد تم تعيينك ممرضة بالمستشفى كما يمكنك تسلم عملك ابتداءً من اليوم.

– وبلهجة تعبر عما يكاد يكون فرحًا قالت:

– سآتي هذا الصباح لأستلم العمل..

– كان هذا المستشفى كبيرًا جدًّا يضم العديد من المصالح الطبية في مختلف التخصصات ومجهزًا بآلات عصرية وغرف نظيفة ومرتبة للعمليات والجراحة، في ممراته الطويلة لا مناص من رائحة الأدوية التي كانت تذكرها دائمًا بالمستوصف الإسباني الصغير الذي كانت تتمرن فيه على التمريض تحت إشراف الطبيبات الراهبات بأزغنغان، لا بد أن الحياة كانت ستصبح شيئًا آخر لسوار لو أن والدها سمح لها بأن تتابع

دراستها بالجامعة كي تحقق حلمها في أن تصبح طبيبة، لقد حلمت منذ طفولتها بأن تصبح طبيبة مثل الطبيبة الراهبة مارية، التي أنقذت والدتها وأخاها صالح من الموت. في المستشفى جناح طويل خاص بأمراض الدم والأورام السرطانية نقلت إليه سوار لتهتم بالمرضى الموجودين به، كانت سوار تتناوب على إعطاء الدواء لهم بإشراف من الممرضة الرئيسية وقد نشأت بينهما علاقة وثيقة أثناء الأشهر الماضية عندما لاحظت أن سوار من الممرضات الأكثر عطفًا ورحمة بالمرضى، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً عندما طلبت الممرضة الرئيسية منها أن تكف عن العمل لأن دوامها قد انتهى خاصة عندما أحست أنها أجهدت نفسها أكثر من اللازم وفي وطأة التعب وهي تهم للمغادرة، إذ برجل في الخمسينيات من عمره يدخل عليهما في حالة غيبوبة ترافقه سيدة أنيقة وجميلة. طلبت الممرضة الرئيسية من سوار أن تستدعي الطبيب بسرعة كانت الحالة مستعجلة ولا تتحمل التأخير، طمأنت الممرضة الرئيسية السيدة التي رافقت المريض، وطلبت منها الانتظار خارجًا. استدعت سوار الطبيب المسؤول وتكلفت الممرضة الرئيسية بشرح حالته للطبيب، طلب منها أن تحضر له ملفه وأن تدخله على الفور لغرفة العمليات، كان الطبيب على معرفة مسبقة بالمريض وبالسيدة التي ترافقه، ثم توجه إليها وأخبرها..

– لا تقلقي سيدة فاطمة، سيكون كل شيء على ما يرام..

– كانت السيدة في قمة التوتر والقلق وعلى وجهها الجميل تعبيرات

كئيبة كيوم ملبد بالغيوم الرمادية، كانت ترتدي بذلة زرقاء مع سروال فضفاض من الحرير في نفس اللون وتضع عقدًا طويلًا يبدو أنه من الذهب الأبيض وتنتعل حذاءا أسود ذا كعب منخفض كالذي تستخدمه سيدات الأعمال، وقالت برقة..

– أرجوك يا دكتور.. افعل كل ما بوسعك!

– عرفت سوار من لهجتها أنها سيدة مصرية، هز الطبيب رأسه وقال بثقة..

– اطمئني سيدة فاطمة سأبذل كل ما في وسعي، ليست هذه المرة الأولى التي يمر بها السيد رشيد بهذه الحالة.. إنه رجل قوي وشجاع وسينجو من هذه المحنة بإذن الله..

– كانت هذه الكلمات بمثابة النور الذي تسلل إلى داخلها ليبدد بعض الشيء تلك العتمة التي كانت تغزو وجهها، وابتسمت السيدة المصرية وكأن الشمس أطلت من ثغرها وقالت..

– ليكن الله معكما يا دكتور!

– طلبت الممرضة الرئيسية من سوار أن تحضر ملف المريض، استغرق الطبيب وقتًا طويلًا معه ليستطيع إنقاذه، ولم تستطع سوار تلك الليلة أن تعود إلى بيتها، كانت في حيرة تامة من أمرها بين العودة إلى ابنها، الذي لم تره اليوم بأكمله، وبين المريض الذي كلفها الطبيب شخصيًّا بأن تهتم

به، بعد أن امتدحتها له رئيسة الممرضات، وأثنت على عملها، وأخبرته أن المرضى يشعرون بالراحة عندما تهتم بهم. عرفت سوار فيما بعد بأن المريض الذي كلفت بالاعتناء به، ما هو إلا رجل الأعمال المغربي الشهير والسياسي المعروف رشيد لهواوي، كما عرفت من ملفه الطبي أنه أصيب في شهر إبريل الماضي بسرطان المعدة وأن المرض في بدايته ويمكن أن يشفى منه بالمداومة على العلاج، حتى لا ينتشر بكامل جسده، وقد ظلت السيدة فاطمة سيدة الأعمال المصرية المعروفة، وزوجة أخيه الوحيد المتوفى تشجعه على متابعة العلاج الذي لم يكن السيد رشيد في البداية متحمسًا له. استغربت سوار عدم سفر رشيد لهواوي للعلاج في أوروبا أو أمريكا، لأنه كان من أغنى رجال الأعمال في المغرب، ويمكنه العلاج في أفخم وأغلى المستشفيات حول العالم، لكن من يعرف رشيد عن قرب يعرف مدى تشبثه بمبادئه، وأنه كان مصرًّا دائمًا على تلقي العلاج في وطنه، وقد سمعت أن القصر الملكي مهتم بوضعه الصحي وبأنه صدرت تعليمات بغية توفير الرعاية الصحية اللازمة له.

– في الصباح الباكر بعد أن نجحت العملية الجراحية في إزالة ورم المعدة، انتقل رشيد إلى غرفة فخمة مجهزة بأحدث الوسائل الطبية ليقضي فترة علاجه بالمستشفى، ورغم أن خضوعه لهذا العلاج جعله يفقد أكثر من ثلث وزنه خلال ثلاثة أسابيع فقط، فإن الرجل لم يستسلم وقاوم المرض بكل بسالة وشجاعة بمساعدة الفريق الطبي الذي كان

مشرفًا على حالته، وبمساعدة السيدة فاطمة التي كانت بمثابة أخت له، لقد كانت تزوره باستمرار وتتابع حالته باهتمام شديد، كانت سيدة في الأربعينيات من عمرها سمراء البشرة تتحلى بأنوثة طاغية وجاذبية قوية، كانت فاتنة رغم أنها لا تضع من مساحيق التجميل سوى كحل أسود يزيد من سواد رموش عيونها الواسعة، لها شعر أسود طويل وأملس يثري قامتها كحورية فرعونية استحمت في مياه النيل لتوها. كانت زيارتها تبعث الأمل في نفس رشيد وهي محملة بأخبار جيدة عن سير أعماله ومشاريعه. كان يأتمنها على شركاته، لأن رشيد لم يكن يثق في أحد آخر سواها، خاصة بعد وفاة أخيه الأكبر والوحيد، الذي ترك ابنتين في مقتبل عمرهما في أمانة رشيد الذي لم يتزوج ولم يرزق بأولاد في حياته، فكانت عائلة أخيه بمثابة عائلته يسهر على الاعتناء بهم وكأن أخاه لا يزال موجودًا معهم.

– بعد شهر تقريبًا تدهورت حالة رشيد من جديد. وفي إحدى الليالي بينما كانت سوار تحضر له الأدوية التي يجب عليه تناولها، سمعت صراخًا قويًّا، كان يصرخ من شدة الألم كانت أضلعه تبدو وكأنها محطمة وجسده تنبعث منه رائحة كريهة وطبقة سوداء وكان يخرج من فمه مخاطًا أبيض لزجًا، عندما رأته سوار في تلك الحالة ذهبت مسرعة لإعلام الطبيب لقد ظنت أن الرجل يحتضر وأن نهايته قد اقتربت لا محالة، إنه الآن لا يصارع أحد منافسيه في السوق أو في الانتخابات، إنه الآن يخوض صراعًا مع

المرض دون أي قواعد أو قوانين، القانون الوحيد في هذه المعركة هو من سينتصر أولا؟ إن رشيد الذي تطلق عليه وسائل الاعلام سيد المعارك السياسية والاقتصادية في حلبتي السوق والسياسة، أصبح مريضًا يصارع المرض ليكسب معركة الحياة. المشكلة هنا أن حلبة المصارعة هي جسمه، فهل سينتصر هذه المرة ويهزم خصمه إلى الأبد؟ أم ستنهار الحلبة من شدة الصراع؟!

– في اليوم التالي، عندما أصبح رشيد وسوار وحدهما وناولته الأدوية كالعادة أشار لها بالجلوس، تريثت قليلًا قبل أن تجلس. ظلا صامتين لفترة يتبادلان النظرات. وضعت سوار الأدوية جانبًا على الطاولة وشبكت أصابع يديها وانتظرته حتى يبدأ الكلام..

– ما لم أكن مخطئًا، أظن أنك الممرضة التي أنقذت حياتي بالأمس..

– قمت بواجبي فقط. أجابت سوار

– ولكنك بقيت بعد دوامك.. ولولا أنك أخبرت الطبيب في الوقت المناسب لكنت الآن في مكان آخر غير هذا العالم.

– هزت سوار رأسها وقالت:

– لا تقلق سيد رشيد، كل شيء على ما يرام.. لقد تجاوزت مرحلة الخطر وقد أكد لك الطبيب هذا بنفسه.. والمهم الآن أنك معنا هنا في هذا العالم أشد صلابة وقوة وإصرارًا على هزم المرض ومعانقة الحياة.

– كان رشيد بالغ اللطف والطيبة معها، فسألها..

– هل يمكن أن أطلب منك طلبا؟

– نعم. أجابت.

– لقد أخبروني أنك تحبين القراءة، فهل يمكن لك أن تقرئي لي الجرائد وبعض الكتب، لقد أصبح حملها ثقيلًا على رجل عليل مثلي.. لم يعد يقوى على حملها بيديه الضعيفتين..

– هذا من دواعي سروري.

– ثم حملت سوار الأدوية التي كانت بين يديها واستأذنته في الانصراف.

– كانت فترة العصر مشحونة بالعمل لأنها الفترة المخصصة للزيارات. كثيرون جاءوا إلى المستشفى لزيارة ذويهم وأقاربهم للاطمئنان على حالتهم الصحية. كانت سوار تبذل جهدها لمساعدة المرضى كي يستقبلوا عائلاتهم في أحسن حالة، كانت في العادة تساعدها الآنسة جيهان، وهي ممرضة شابة تحت التمرين، لكنها اليوم غادرت قبل دوامها لأنها كانت على موعد مع طبيب والدتها، فتكلفت سوار بباقي العمل، وما كادت تنتهي في آخر النهار حتى تبادر إلى ذهنها رشيد بعد أن تنبهت إلى أن زوجة أخيه السيدة فاطمة لم تحضر كعادتها لزيارته. ذهبت إلى غرفته لتطمئن عليه، فوجدته جالسًا على الكرسي الهزاز مقابل السماء الزرقاء يتأمل غروب الشمس التي كانت تحتل بنورها السماء، كان شاردًا كمن فقد الإحساس بالوقت

وبما يدور من حوله، ولم يوقظه من شروده ليعود إلى الواقع سوى صوت سوار الدافئ، التي كانت واقفة تتأمله بمشاعر مبهمة. كانت الغرفة فسيحة ومرتبة بها نافذتان كبيرتان تطلان على أشجار الصفصاف الموجودة بفناء المستشفى، حيث تنفذ زقزقة العصافير العائدة إلى أعشاشها التي بنتها على الشجر كلما اقترب موعد الغروب، كانت غرفة فخمة ولولا السرير الطبي المغطى بإيزارات بيضاء لبدت كغرفة في فندق فخم. لقد اعتاد رشيد منذ أن دخل المستشفى لإجراء عملية استئصال الورم، أن يجلس على كرسيه الهزاز، الذي أُتي به من فرنسا خصوصًا له، أمام النافذة ليستنشق بعض الهواء النقي، قالت سوار:

– هل أنت بحاجة إليَّ؟

أجابها ببحة حزينة:

– نعم يا سوار.. هل يمكنك أن تساعديني في ارتداء ملابسي أشعر ببعض البرد!

– لم يكن رشيد لهواوي قادرًا على ارتداء ملابسه بنفسه، وكانت سوار تساعده على ارتدائها. كانت تفعل ذلك في البداية بدافع الواجب، ولكنها فيما بعد أصبحت تقوم بذلك بدافع الصداقة، لقد تعودا على بعضهما البعض، فقد كانت سوار تمضي وقتًا طويلًا معه وهي تقرأ له الجرائد وبعض الروايات التي كانت تجلبها معها من مكتبتها الخاصة.

لم يكن بمقدور أي منهما أن يميز إن كانت هذه العلاقة التي تجمعهما ترتكز على الصداقة أم على الشفقة.

– تناول رشيد دواءه وشرب كوبًا كبيرًا من الماء، وهو يتأمل سوار دون أن يتكلم، بينما هي تضع حبة دواء فوارة في كوب آخر من الماء، وهي تحركها بملعقة طويلة جدًّا تصل إلى قاع الكأس الممتلئ، ثم قال لها فجأة دون أن يتوقف عن مراقبتها..

– هل ستنهين لي اليوم قراءة الرواية..؟

– نظرت إلى عينيه نظرة حنونة، وهي ترفع الملعقة من الكأس وتمده له ليشرب الدواء، وابتسمت قائلة:

– إن كان هذا سيسعدك فسأنهيها لك هذا المساء..

– فابتسم لها معبرًا عن امتنانه، وبنبرة صوته الرزينة قال:

– شكرًا لك أيتها الريفية الطيبة!

– كانت الساعة العاشرة ليلًا، وكان المستشفى هادئًا ومعظم المرضى نائمون، إلا الذين بقيت آلامهم مستيقظة، وكان رشيد من المرضى الذين لا تغفوا آلامهم بسرعة، لكن سوار كانت تؤنسه بقراءة الرواية التي وعدته بأن تنهي قراءتها له الليلة، وكان هو يصغي إليها بكل حواسه، وهي تقرأ له، ويرفع نظره إليها فيحس أنه كمن اعتنق الخيال كحقيقة

عظمى. كانت الروايات التي تقرؤها له تشفيه، وكأن كل حرف فيها جرعة نقية من دواء سحري تخرجه من الأسى والعزلة التي فرضها عليه المرض، كانت الكلمات التي تقرأها له تحرسه من غدر المرض العاصف، الذي هبت رياحه لتقتلع جذوره من هذه الحياة، لكن بفضلها استطاع أن ينظر إلى داخله ويتعرف على قوة روحه العميقة، فكان يقابل رعبه من المرض وجهًا لوجه فيحول وجعه وألمه ومرضه إلى إصرار وتحد وقوة، وعندما أوشكت سوار على أن تنهي له قراءة رواية الطيب صالح، كان رشيد يتمتم ويردد في ذهنه جملة قرأتها له سوار من الرواية، وبقيت عالقة في ذهنه..

– إنني أريد أن آخذ حقي من الحياة عنوة..

– في تلك اللحظة سمعت سوار تمتمته، فارتبكت لأنها ظنت أن حالة الهذيان قد عاودته من جديد، فقالت بصوت تملؤه الرقة:

– هل أنت بخير يا سيد رشيد؟

– وفيما هي تتفقد حرارة جسمه، توسل إليها أن تحضر معها رواية أخرى لتقرأها له في الغد، وأضاف بصوت هادئ ومبحوح:

– أنا في لحظة فارقة من حياتي يا سوار.. صرت أنظر إلى مشهد الحياة بشكل مختلف، منذ أن بدأتِ تحضرين الروايات والكتب وتقرئينها لي.. الزمن يكر.. والصحة تفر.. وحدود الحياة تتجلى في عيني كمسار محدود

لم يتبقَ منه الكثير.. وقد استطعت بفضل ما تقرئينه لي أن أعيش أكثر من حياة في حياة واحدة..

– ابتسمت سوار ابتسامة مشفقة، وهي تغلق دفتي الرواية وقالت..

– كلامك هذا أسعدني كثيرًا! لم أشعر قط بأنني كنت سببًا في إسعاد أحدهم كما شعرت اليوم..

– وما إن قالت ذلك حتى أحس رشيد براحة وسكينة، وبدأ النوم يداعب أجفانه ومن ثم نام مبتسمًا، كطفل صغير فاجأه النوم بعد أن حكت له أمه حكاية المساء. ومن تلك الليلة كان رشيد كلما أراد البحث في دروب روحه عن أشد المصابيح وهجًا، كانت تداهمه تلك الكلمات الصافية مضيئة كالشمس، "إنني أريد أن آخذ حقي من الحياة عنوة". كان المرض محنة جعلت منه شخصًا آخر، شخصا يقول لنفسه امنح ولا تنتظر، أحب ولا تتعلق، أعطِ ولا تشترط، ابحث عن الإنسان في أي مكان لتحاوره وتثريه ويثريك، ازرع ولا تيأس من أنك لم تحصد، وتحرر من المخاوف وحرر من حولك منها، ارتقِ بإنسانيتك لأن في ذلك رفعة واسمُ بأحاسيسك لأنها ترتقي بآدميتك، وارو قلبك بالحب لأنه ماء الحياة، لتعش كما تريد طالما لا تؤذي أحدًا، وابذر في الأرض ولو كانت عصية على النماء، واملأ نفسك بالأمل حتى تستطيع مواصلة الطريق والبدء من جديد.

– لقد علمه المرض مهادنة الآلام، وألا يطأ أعتاب الاستسلام مهما طوّقته ظلال اليأس، وبفضل صداقته العميقة مع سوار أصبح إنسانًا عاطلًا عن اليأس، وفي كل يوم يفتح أبواب روحه لتتسرب إليها شمس الأمل، وهكذا استطاع أن يتغلب على مرضه بعد أن كان تائهًا وكل الطرق إلى الشفاء منه مغلقة.

– بغياب أحمد وبالحضور غير المرئي لسوار، التي كانت منشغلة بعملها في المستشفى وأغلب ساعات دوامها كان في الليل، بدت الفيلا فارغة كجسد بلا روح. ورغم أن مدبرة البيت كانت تتولى أمور النظام وتدبير الشؤون المنزلية، فإن أحمد شعر بانزعاج كبير من عمل زوجته، الذي كان يأخذ معظم وقتها، ولا يتسنى لها الاهتمام بابنها الذي حصل الشهر الماضي على شهادة البكالوريا، ويستعد للسفر إلى فرنسا ليكمل تعليمه الجامعي في إحدى جامعات باريس الراقية. كان هذا الموضوع يربك سوار ويشعرها بالتعاسة، لأنها كانت تخاف من أن يستغل زوجها دراسة ابنها كذريعة لإبعاده عنها. فهي تعرف طبعه وغطرسة روحه، وترعبها حدة ضغينته. فكانت تقضي ساعات العمل بكاملها وهي تفكر في هذا الموضوع وتبذل جهدًا نفسيًّا مضنيًا لتمنع نفسها من أخذ قرار متسرع قد يهدم مستقبل ابنها. وفي بحثها عن حل يخلصها من قلقها ومخاوفها، اضطرت سوار أن تطلب عطلة من المصلحة الخاصة بشؤون الموظفين بالمستشفى، بعد أن طلب منها أحمد العائد من إحدى سفرياته

الطويلة، العودة باكرًا للبيت ليتناقشا موضوع سفر ابنهما إلى فرنسا.

– في اليوم التالي، عاد أحمد إلى بيته وكرس نفسه لقضاء الوقت مع ابنه الصباح بأكمله، أحست سوار أن أحمد يحرض ابنهما الوحيد ضدها، خاصة وأن مستقبله أصبح مرتبطًا بوالده، الذي سيوفر له كل الإمكانيات اللازمة للسفر والدراسة. وعندما حل وقت الغداء التفت الأسرة حول المائدة في جو من الأبهة والفخامة، اللذين كان يحرص أحمد عليهما كطقس من الطقوس التي تشعره بأنه محامٍ مرموق وسياسي محنك، أما سوار فكان ذلك يشعرها بالاشمئزاز منه ويذكرها بأنه زوج خائن وأب فاشل. فقالت سوار:

– سيكون غسان أوفر جميع زملائه حظًّا لأنه حصل على أعلى معدل بفصله، أنا فخورة بك يا بني!

– حاولت سوار أن تستبق أي توتر أو أي تعليق سلبي من زوجها، فهي بذلك تريد كسب ابنها في صفها، وتريد أن تظهر له بأنها متحمسة لسفره وبدء حياة جديدة. ولكن أحمد أراد أن يعكر صفوها وقال:

– من حسن حظ غسان أنه شاب طموح وذكي.. ويستشرف المستقبل، إنه يشبه والده.. لقد استطاع التفوق في دراسته رغم إهمالك وتفضيلك البقاء في المستشفى مع مرضاك بينما ابنك أولى باهتمامك والبقاء إلى جانبه!

– استعاد غضب سوار سمعه بعدما حاولت أن تجعل منه أصمًّا، وتوقفت عن الأكل وقالت بصوت حاد:

– غسان ابني يشبهني أنا.. لأنه استطاع التفوق والنجاح رغم غيابك المستمر.. وقضاء الوقت في أحضان النساء.. وفوق المنصات تلقي خطبك التي تبيع بها الوهم للناس..

– وفجأة بعد امتداد الشجار بينهما، وقف غسان منتفضًا وصرخ في وجهي والديه..

– أرجوكما أن تكفَّا عن هذا الهراء.. لم أعد أستطيع تحمل شجاركما.. لماذا لا نستطيع أن نجتمع مثل باقي الأسر.. لم نجتمع على مائدة معًا منذ أكثر من سبعة أشهر.. أنا لا أشبه أحدًا منكما ولا أريد ذلك.. كل ما أريده أن أرحل من هنا في أقرب وقت إلى فرنسا.. أريد أن أبحث عمن يشبهونني.. هذا إن كنت أصلًا أشبه نفسي!

– وتقدم أحمد نحو ابنه ليهدئه وقال:

– نحن نريد مصلحتك يا بني!..

– فانتفض غسان في وجهه من جديد وقال بصوت مرتفع:

– إن كنت تريد مصلحتي.. فعجل في إتمام إجراءات سفري.. أريد السفر هذا الأسبوع القادم.

– ثم انصرف دون أن يضيف كلمة واحدة. جمدت سوار كالتمثال، كانت تتابع ابنها غسان وتناهى في سرها إحساس غريب وبكت، بكت من الخوف، الخوف من فقدان ابنها، كانت تذرف الدمع أمام زوجها الذي لم يستطع الدنو منها لمواساتها أو التخفيف عنها ثم خاطبها ببرودة تخفي غضبًا شديدًا:

– عليك أن تتهيئي هذا الأسبوع لسفر غسان.. سأقوم بكل ما يلزم من أجل سفره واستقراره بفرنسا في ظروف جيدة..

– حدجته سوار بنظرة صارمة وقالت:

– افعل ما تراه مناسبًا..

– ثم انتصبت واقفة وكأنها تعلن الحرب عليه دون أن تمهله وقتًا للتفاوض في عدم خوضها وبعد أسبوع من ذلك، غادر غسان إلى فرنسا وعادت سوار إلى عملها في اليوم التالي لسفره. وكان أول ما قامت به عند العودة إلى العمل هو التوجه إلى غرفة رشيد للاطمئنان عليه. كانت تشعر بالوحدة والحزن بسبب فراق ابنها وبمجرد أن دخلت غرفته فقدت السيطرة على نفسها وبكت بشدة، كان فراغ الغرفة مهيبًا والسرير معوجًا وكأنه سمع بكاءها ورائحة أدويته العبقة بأنفاسه يحملها هدوء عميق يكسر صوت نحيبها. أرعبها رحيله دون أن تودعه. كانت تشعر بأنه نائم في السرير يبتسم لها كمن ينتظر معجزة يعرف أن حدوثها سيفتح

له أبواب الأمل، اقتربت من السرير الفارغ الذي بدا يشبه قاربًا مقلوبًا حزينا على غرق راكبه، كانت تشم الوسادة وهي تحضنها بين ذراعيها، لقد أدمنت رؤية وجهه المصاب بالمرض ورأسه المصاب بالصلع وعينيه العميقتين اللتين كانتا كسقف يحمي من الوحدة والأسى. لم تعد سوار قادرة على أن تميز مشاعرها تجاهه فهي تارة تنظر إليه نظرة المحبة وتارة أخرى نظرة الغارقة في الشفقة والرأفة بحاله، كان هذا التناقض يشعل الاضطراب في روحها، كانت مستعدة لتضع كل أحاسيسها رهن إشارته إن كان هذا قد يعيده إليها، كانت متورطة بمشاعر لا تعرف كنهها.. لا تعرف إن كانت صداقة أو شفقة أو حبًّا، ليس أكثر ضياعًا من امرأة خسرت رجلًا خطفه العمر ولا تعرف نوعية المشاعر التي تكنها له، لا تعرف من أي جهة تنبثق لتجعلها حائرة تدور حول نفسها كمن اضطرته الحاجة إلى الغوص عميقًا في روحه حتى قاع الغرق بحثًا عن يد ترشده إلى الحقيقة، حقيقة لطالما تجنبت مواجهتها لا أن تقف عاجزة عن فهم نفسها، أعادت الوسادة إلى مكانها، وفتحت النافذتين الكبيرتين. حاولت أن تتمالك نفسها وما إن التفتت حتى رأت مريضًا آخر يدخل إلى الغرفة، وكأن حيرة الإنسان تولد من متاهة القدر، يرحل البعض ويأتي آخرون ليحلوا مكانهم، ويبقى الحائرون منفيون في ضياعهم باحثين عن المسافة الآمنة بين غربة الروح وحدود الجسد.

– في الممر الطويل ذهبت سوار لتباشر عملها من جديد والحزن يحتل

جسدها المتعب، دلفت إلى غرفة مكتب الممرضة الرئيسية فوجدتها منكبة في توزيع جدولة الممرضات والممرضين، وعندما رفعت رأسها وجدت أمامها سوار بحالتها الكئيبة، تنتظر منها أن توجهها لمقابلة مريض آخر كما سارت العادة، فبادرت إليها رئيسة الممرضات بسرعة وأخرجت من درجها مجموعة من أندر الكتب الملفوفة بأوراق الهدية الجميلة، تفاجأت سوار فترددت في تسلمها، وعندما رأت اسم رشيد مكتوب على عنوانها، تبسمت وتسلمتها وهي تقلبها، وعندما رفعت رأسها نحو رئيسة الممرضات، بادرتها بابتسامة اطمئنان..

– لقد سمح له الطبيب بمغادرة المستشفى لمتابعة العلاج بمنزله.. وقد أصر على أن يترك لك هذه الهدية..

الفصل السابع

ومع ذلك عندما استرجعت الماضي في تلك الليلة، رأت أن حياتها تخللتها لحظات من الأمومة، استمتعت فيها بلذة تضحيتها من أجل ابنها الوحيد. ابنها الذي اعتبرت حبها له هو الحب الحقيقي. فالأمومة كانت سبيلها الآخر للنيل من الحب. لكن ابنها لم يعد طفلًا، هو الآن شاب يافع، يدرس في أرقى المعاهد بباريس بفضل علاقات والده. أحست أن مشاعر الأمومة تلاشت، وأنها الآن مجرد امرأة عاقر، لا تنجب سوى الأسئلة المحيرة والفراغات العابرة. هي الآن تنجب أشياء لا علاقة لها بالأمومة، ولم يعد لديها مواسم للاحتفال. المسكينة لم تعرف يومًا طعم الأمان مع من أحبتهم. لقد كانت دائمًا وحيدة ومتحفزة لتلقي ضربات موجعة من الحياة، مثل حارس مرمى لحظة ضربات الجزاء. راحت سوار تقلب نظرها في زوايا غرفتها الفخمة الكبيرة الكائنة بالمحاذاة مع غرفة

أحمد، أمام سريرها الضخم والجميل كانت هناك مدفأة، اقتربت سوار من المتكأ العلوي لها وأخذت عود الثقاب لتشعل بعض الحطب علها تدفئ وحدتها، كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل، وقد سكن الليل ونام كل ما حولها، ولم يبقَ سوى جرح ذاكرتها ساهرًا لا يهدأ ولا يستريح، بل بقي عاصفًا كالريح، كالبحر المتمرد الجريح. أحست بدوار في الرأس وآلام في كل أعضاء جسدها، ومثلما يخلع الجندي درعه ليحصي جراحه، خلعت قلبها كمن يخلع عبئًا على ظهره، كان الهروب إلى النوم والاحتماء بخيالها أهون بكثير من الهروب إلى الذاكرة. تأملت نفسها وأحست بشعور غريب، أطفأت الأضواء ونامت، كمن ينام دون قلب. فالنوم دون قلب له طعم آخر.

بعدما قاومت الأرق لليلة كاملة، استيقظت سوار في الصباح الباكر. كان قلبها يخفق بشدة، وكأنه يقول لها قومي واستقبلي هدية القدر لك في يومك الأول من عامك الأربعين. شربت كوبًا من الماء، وحاولت العودة إلى النوم لكنها لم تستطع. انتصبت في الفراش وبقيت تحملق بعينيها المحمرتين من الأرق إلى كل زاوية من زوايا الغرفة، فجأة رن الهاتف، انتفضت من الفراش واقفة، كان رقم من فرنسا يطلبها، بلعت ريقها وارتجف صوتها وأجابت:

- ألو!

رد صوت امرأة فرنسية على الطرف الآخر..

– صباح الخير سيدتي.. هل أنت السيدة سوار؟

أجابتها بقلق وترقب يملأ حشرجة صوتها:

– نعم!

وبنبرة لا تخلو من الجدية والأسف..

– لقد حاولنا الاتصال بزوجك السيد أحمد.. لكن هاتفكم ظل مشغولًا طوال الليل! يؤسفني سيدتي أن أخبرك.. أن ابنك أصيب في حادث ليلة البارحة.. وقد تم نقله إلى المستشفى لكنه لم يتمكن من النجاة.. وقد توفي صباح اليوم!

ساد بينهما للحظات صمت عميق، وبقيت السيدة على الخط تنادي..

– سيدة سوار.. سيدة سوار.. هل تسمعينني؟ ألو.. ألو.. هل تسمعينني.. سيدتي..

سقطت سماعة الهاتف من يديها وبقيت مشدوهة لا تتحرك من مكانها. وكأن القدر كان يتحين فرصة لإدهاشها. لم تتصور أن جولتها الأولى مع القدر في يومها الأول من استكمالها سن الأربعين ستبدأ على هذا العلو الشاهق. بعد انقضاء أربعين سنة من حياتها يأتيها اتصال واحد ليشككها أنها عاشت أصلًا.

تساءلت مع نفسها من هول الصدمة:

– ترى كم يلزمنا من دهشة لتنبت الأقدار أوجاعًا في قلوبنا؟!

نحتت من دموعها تخوم الدهشة، وتوجهت صوب خزانة ملابسها، لبست أجمل فستان لديها، ثم جلست أمام مرآة تسريحتها، وضعت أحمر الشفاه على شفتيها، حاولت أن تضبط مشاعرها وأن تظل على هدوئها، بل على جمودها. أفكار عديدة عبرتها على مدى هذه اللحظات. كانت على مسافة جدار واحد بينها وبين الرجل الذي كانت تحبه وأصبحت تحتقره. كانت الأنفة والكبرياء يغطيان على حزنها وحرقتها. بدت وكأنها لبؤة أمازيغية شامخة في كامل أنوثتها، لم يكن ينقصها سوى ابتسامة لا تترنح على عتبات الأقدار، وعينين لا تلمعان برماد الأحزان الشاهقة.

فتحت باب غرفتها، طلبت من الخادمة أن تعد لها فنجان قهوة ساخن. عندما جاءتها الخادمة بفنجان القهوة، أمسكت به وسألتها إن غادر الأستاذ أحمد، فأجابتها الخادمة:

– لا.. لا يزال في مكتبه!

قررت أن تلتحف بشجاعتها وكبريائها وفتحت باب المكتب، وقف أحمد مندهشًا، فهو لم يتعود أن يراها بمكتبه منذ زمن طويل، ولم يتعود أن يراها متأنقة منذ أن سافر ابنهما إلى باريس، كانت في قمة الأناقة والبهاء، كما لو أنها أميرة حقيقية. وقفت أمامه وهي ترتشف قهوتها بكل أنفة وهدوء، وترمقه بعينيها السوداوين باستهزاء واحتقار، بينما أحمد كان

يحاول أن يرى كل شيء في مكتبه عدا أن يرى عينيها. لقد سبق وأن أبرما اتفاقا بينهما يوم سفر ابنهما إلى باريس لإتمام دراسته، حيث تنازل أحمد عن نصف ممتلكاته لسوار، مقابل أن تؤجل طلب الطلاق كي لا يتأثر مستقبل ابنهما الوحيد بمشاكل والديه، كان زوجًا مقصرًا لكنه كان أبًا حريصًا على مصلحة ابنه الوحيد، رغم أنه لم يكن بمثل هذا الحرص على مصلحة زوجته سوار لأنه لم يستطع التخلص من عقدته تجاهها كامرأة، فهي بالنسبة له مجرد امرأة ومصلحتها الوحيدة تكمن في خدمة عائلتها على حساب طموحاتها وأحلامها، لذلك اتفقا على أن تتم إجراءات الطلاق حتى يتمم ابنهما الدراسة ويعود من فرنسا. كان أحمد قد وقع على تلك الوثيقة يوم سلمها لها، واحتفظت بها سوار كما هي، ولم تضع توقيعها عليها، كانت تنتظر شيئًا ما يقع وقد وقع، كانت تنتظر أن تذوب آخر قطعة حب في معقلها، وقد أشرقت عليها شمس أول يوم من سن الأربعين وكسرتها إلى فتات برنين هاتف من باريس. ألقت على كتفيها الشال البنفسجي العتيد المصنوع من الحرير الذي أهدته لها جدتها في أحد أعياد ميلادها عندما كانت صغيرة، وشقت تلك المسافة القريبة البعيدة التي تفصلها عنه، اقتربت من المكتب ووضعت فنجان القهوة فوقه، ثم جلست واضعة رِجلًا على رِجل، وقالت فجأة بصوت متهدج:

– إذن يا أحمد.. كيف تتصور حياتي لو أنني لم أتزوج بك؟

سألته وهي تحاول إخفاء طابع الألم عن ملامحها. اصطنع أحمد ضحكة

ساخرة وأردف:

– ماذا دهاك هل جننت؟! تقتحمين عليَّ مكتبي في هذا الصباح الباكر لكي تسأليني هذا السؤال السخيف!

ارتشفت بعض القهوة ثم وضعت الفنجان مجددًا فوق المكتب، وانتفضت واقفة واضعة يديها على حافة المكتب، رفعت وجهها نحوه، وبنظرات كلها ألم واستهزاء، هتفت بضحكة ساخرة:

– سؤال سخيف؟! نعم أيها المحامي الكبير المرموق..

ثم استدارت وخطت إلى الأمام قليلًا وبسخرية زائدة استكملت حديثها:

– الأستاذ أحمد يقول عن سؤال زوجته المغفلة والساذجة.. إن سؤالها سخيف!

ثم استدارت نحوه، وتقدمت بخطوات واثقة وبطيئة وهي تنظر إليه بتأمل..

– دعني أطرح عليك السؤال بصيغة أخرى.. ماذا لو لم تظهر في حياتي وحياة أخي بمظهر المناضل اليساري الحالم بتغيير العالم وبإسقاط النظام..؟؟

وأردفت بصوت عنيف.. سأجيبك أنا عن هذا السؤال..

– لو لم تظهر في حياتي ولو لم أتزوج بك، لكنت الآن وسط عائلتي بالريف.. أحتفظ بصورة المناضل اليساري المحترم لك في ذاكرتي.. لكنت أقنعت أمي بالإقلاع عن حزنها جراء اختفاء أخي الذي وثق في كل ما كنت تقوله له ويصدقك رغم أنك لم تكن تقول له الحقيقة دائمًا.. كنا نثق فيك ثقة عمياء وبأنك وجدت من أجل تغيير عالمي وعالم أخي الصغير الذي كان يحلم بغد أفضل.. غد نتحرر فيه من سلطة التقاليد وسلطة المجتمع والدين والعقلية الذكورية التي كانت تحتقر النساء الطيبات والسذاجات مثلي ومثل أمي.. أما الآن وبعد مضي سنوات على هذه الأحلام بإسقاط النظام وانتقال البلاد من عهد إلى عهد، أصبحت أعرف كم كنت ساذجة وكم كانوا سذجًا كل من وثقوا بك وبأمثالك..

كانت تشعر بالحقد تجاه أحمد وهي تقترب منه ومن المقعد، وكانت أمارة الضعف والتعب بادية على وجهها الشاحب. فرفعت رأسها بعنف ثانية، وحدجت أحمد بعينيها، غير أنها لم تلمس في نظراته القلقة والمتوترة إلا لونًا من الذهول والاستغراب. جلست على مقعدها ثانية، فعم الصمت لحظة بينهما. وفجأة شحب لون وجه أحمد ونهض من مكانه، ونظر إلى سوار ثم جلس على المقعد المقابل لها دون أن ينبس بكلمة واحدة، أسقط بصره وبدأ يتأمل حركة قدمه اليمنى التي بدأت تتراقص مع أفكاره. كانت تلك اللحظة مشابهة تمامًا لتلك اللحظات التي قضاها واقفًا في قاعات المحاكم وهو يترافع عن أحد موكليه. الفرق فقط أنه

الآن هو المحامي والموكل نفسه، عليه أن يترافع عن نفسه أمام امرأة يصبح اللسان أمامها فوضى، والبلاغة عبارة عن جسد تضيق أبعاده بالصمت والعجز. سألته سوار وهي شديدة الذعر:

– أتتذكر حين حاولت إعادة روابط الاتصال مع عائلتي وصدوني.. بل وتنكروا لي.. كنت قد فقدتك إلى الأبد بعد سفر ابني إلى باريس وقضاء معظم وقتك بين مكتبك وعشيقاتك وسفرياتك وحفلاتك المشبوهة.. حاولت استعادة ماضيَّ ولم أستطع.. حينها علمت أن ما يفقد لا يدرك من جديد.. وبأنه لا يمكن اختيار ماضينا ولكن يمكن اختيار وجهتنا التالية..

لم يستطع أحمد البوح عما بخاطره، لم يكن ينتظر أن يواجهها بهذا الشكل. كان لا يدري في تلك اللحظة إلى أين يمكن أن تصل الأمور بينهما. اقتربت منه سوار أكثر، وجلست على حافة المقعد المقابل له، وراحت تنظر إليه صامتة، وقد تضاعفت دقات قلبها من فرط الغضب والتوتر، حتى كادت تشعر به أنه سينفجر. ثم سألته وهي تنتحب..

– إذن قل لي لماذا تزوجت بي؟

رفع أحمد وجهه الشاحب شحوب الأموات. وكررت سؤالها وهي تبتعد عنه قليلًا..

– ألن تجيبني؟

تمتم قائلًا كمن يستعيد رباطة جأشه وهمته، ثم قال بحزم وشدة..

- تزوجتك لأنني كنت أحبك!

بدت سوار على إثر هذه الإجابة وكأنها استعادت حواسها، فصمتت دقيقة كاملة ثم انخرطت في ضحك شبه هيستيري، وقالت بصوت مختنق:

- لأنك كنت تحبني! يؤسفني أنني أنا أيضًا تزوجتك لأني كنت أحبك.. ومن أجل هذا الحب ضحيت بكل من أحبهم.. والدي ووالدتي وإخوتي.. تزوجتك رغما عن كل من تربطهم بي علاقة قرابة من بعيد أو من قريب.. وبعدها لم أشعر أنني أتنفس منذ أن تركت عائلتي وتركت الريف.. لقد تركت كل شيء ورائي.. طفولتي وبراءتي، حكايات جدتي ومعها عبق رائحة بطولات أجدادي.. أتعلم؟! كان ذلك لأجلك أنت! ومن أجل كل الأحلام التي وعدتني بأن نحققها معا..

انتفض أحمد وكأن تشنجات عصبية انتابته واستدار إليها، وحدق إلى عينيها وقال..

- أنا أيضًا تركت ماضيَّ وكل شيء ورائي.. واخترتك أنت دون كل النساء لتكوني رفيقة دربي.. اخترتك لتكوني معي إلى جانبي في كل محطات حياتي، وتشهدي على نجاحاتي وانتصاراتي.. لكنك لم تفرحي يومًا من أجلي! لم أكن أجني من حياتي معك سوى الحزن والبؤس! كنت

أبذل قصارى جهدي لأجعلك امرأة سعيدة.. لكنك لم تشكريني يومًا على ما قدمته لك.. بل كل ما كنت أجده منك هو التذمر والملل والقلق.. فعلت الكثير لك لأوفر لك كل ما تحلم به أي امرأة في هذا العالم.. لكنك امرأة تحبين الحزن والماضي أكثر من أي شيء أقدمه لك.. حتى ابننا وفرت له ما لم يحلم به أي شاب من وسطنا..

تراجعت سوار إلى الوراء عندما سمعته يتكلم عن ابنهما الذي لم يعد ابنهما، بل أصبح طيفًا يهدد راحتها، ويهدم كل ما صبرت من أجله. شعر أحمد أنه أثقل عليها فتراجع هو الآخر إلى الوراء. لبثا يتبادلان النظر وانقضت دقيقة أخرى من الزمن حافلة بصمت مملوء باللوم والعتاب. كان يظن أنه مدين لها باعتذار ظل ينتظره منذ أن ساءت علاقتهما، وعندما أحس أنه لن يظفر به منها، سألها من جديد وهو يرى نفسه على خنق نفسه:

– هل تنكرين أنني قدمت لك كل ما يمكن لأي امرأة أن يجعلها سعيدة؟!

تمالكت سوار نفسها وأبعدت طيف ابنها عن مخيلتها حتى لا يكسر جناحيها اللذين بالكاد بدأت تحركهما، لعلها تتذوق فرحة الطيران إلى عالم تبحث فيه عن حرية وسعادة لم تذق طعمهما مع أحمد. فغمغمت بصوت لا يكاد يسمع:

– امرأة سعيدة!

لما تفوه أحمد بهذه الكلمات، شعرت من جديد بذلك الشعور البارد المتجمد المغموس في الحقد والكره يجتاح جسمها فجأة، ويتغلغل في أعماق أعماقها. نظرت إليه وبدا لها وجهه شبيهًا بوجه كل المختفين من حياتها، تذكرت على الفور أخاها صالح، وأحمد الرجل الذي أحبته، والذي حلمت معه بإطلاق سراح حلم الجماهير الشعبية كما كان يردد على مسامع أخيها صالح ومسامع جميع تلاميذه الذين حلموا معه بصياغة نموذج اجتماعي تسوده العدالة والكرامة والديموقراطية والحداثة والاشتراكية، واختفى كل هذا واختفى أحمد أيضًا منذ زمن طويل، ولم تعد تعرف هذا الرجل الغريب الذي يجلس أمامها الآن. قالت وهي تطلق زفرة محزونة:

– أتسمي الريبة والشك والغموض الذين قدمتهم لي سعادة؟! أتحسبني امرأة ساذجة.. أنت مخطئ.. كل ما في الأمر أنني كنت لا أقول كل شيء.. لأنني ظننت أنه ربما ما تدركه أنت أكثر عمقًا مما أردت أن أقوله!

شعر أحمد أنه انتصر في نزاله الأول أمامها، فاعتدل في جلسته وبثقة تامة قال وهو يضع رجلًا على أخرى..

– لقد كنت أدرك أكثر مما تعلمين! فللحياة أوجه يصعب على المرء

اكتشافها بسهولة.. كل منا قد يفترض أن الحقيقة أو الحق إلى جانبه دائمًا، لذا يفترض أن يتفاعل الآخرون معه وفق قاعدة فهمه هو،هكذا نظن أو نأمل، وأنا كنت صادقًا حين اخترتك وتزوجتك.. واعتبرت حبنا حقيقة سيقف الحق دائمًا إلى جانبه ليبقيه على قيد الحياة.

رفعت فنجان قهوتها، وقبل أن ترتشف منه قالت له، وهي تتأمل عينيه اللتين بدتا لها تستقران بمكانهما..

– فعلًا كنت صادقًا حين قلت إنك اخترتني لأكون معك إلى جانبك في كل محطات حياتك.. وأشهد على نجاحاتك وانتصاراتك.. وكنت صادقًا حين جعلتني فعلًا بجانبك.. ونسيت أن تشركني في حياتك.. لقد جعلتني شاهدة عيان على نجاحاتك فقط.. ونسيت أن حبك لي لوحده كان غير كافٍ لسعادتي..

ارتشفت من قهوتها وهي تتفحص عينيه اللتين بدأتا تهتزان من مكانهما من جديد، ثم استمرت في حديثها بكل ثقة ورزانة..

– أنا أيضًا كنت صادقة حين فتحت لك قلبي.. كنت امرأة فائقة الأحلام لكن المشكلة أن عقلك كان قد أدمن العيش في الأوهام.. وهم الحب ووهم تغيير العالم، والحقيقة أنك لم تحب أحدًا سوى نفسك وعجزت عن تغييرها للأفضل..

كانت هذه الكلمات كافية لتجعل أحمد يحاول الاعتدال في جلسته من

جديد. كانت صراحتها وجرأتها ذلك اليوم قد خلخلت توازنه وثقته بنفسه.

شعر أحمد بأمواج من الغضب، تقارب الطوفان، تجاه سوار، كانت تحاصره بلومها من كل جهة، فقرر في تلك اللحظة أن يحاول امتصاص غضبه وتجاوز حصارها، بتطوير النقاش في اتجاه آخر، فاستطرد قائلًا:

– دعك من كل هذا الآن يا سوار.. دعيني أخبرك بخبر مهم..

تظاهرت سوار بعدم الاكتراث له، وقالت بنبرة استهزاء..

– ما هو هذا الخبر المهم؟

اقترب منها قليلًا وهو يحاول إخفاء علامات الفرح من على وجهه وقال:

– لا بد أنك سمعت عن تشكيل الحكومة الجديدة.. وأن الملك قام باستدعاء الكاتب الأول للحزب إلى قصره، لقد طلب منه طي صفحة الماضي ونسيانه والتفكير في المستقبل الذي سيفتح آفاقًا جديدة للطرفين، وقد أفضى اللقاء إلى تشكيل حكومة تناوب توافقي، وقد أخبرني الأستاذ نجيب أنه تأكد من مصادر موثوقة بها من أنني سأستلم حقيبة وزارية لم يحددوها بعد بهذه الحكومة الجديدة..

نهضت من على كرسيها واقتربت منه قليلًا وبهمس، كأنها لا تريد لقاضي الجلسة أن يسمعها وبابتسامة لم يستطع أحمد تحديد مدلولها قالت:

– إذن سنشرب اليوم نخب استوزارك...

تطلع أحمد بفخر وفرح إلى عينيها، لكنها أردفت:

– وطبعا سنشرب نخب تحولك من مناضل أراد إسقاط النظام وتغيير العالم.. إلى انتهازي سيتوج نضاله بحصوله على منصب وزير مخزني نظامي عن جدارة واستحقاق...

استفزه كلامها كثيرًا وشعر أحمد بالامتعاض من حدة جرأتها، تمالك نفسه وحاول أن لا ينساق نحو غضبه، وقال بنبرة شديدة وهو يحاول أن يجعلها تفهم استثنائية الوضع، وأن الأمر ليس مجرد استوزار في نظره، فسألها:

– هل تعلمين ما هي مشكلتك يا سوار؟ مشكلتك أنت وأمثالك من ذوي القدرات المتواضعة على الفهم أنكم لا تبذلون أي مجهود للتخلص من ندوب الماضي والمضي قدمًا نحو المستقبل.. أنت وأمثالك ترون العالم من زاويتكم الضيقة ولا تدركون أن التغيير يصطدم بالواقع مهما كانت أهدافه نبيلة وعظيمة، ولن تتجاوزوا عقدة الماضي بهدوء وموضوعية إلا حين تشعرون أنكم تجاوزتموه بالفعل.. ومن سيظل عالقًا في الماضي سيعجز عن التحرر منه وسيسكنه وسيقتات على صراعاته وانتكاساته وبطولاته الوهمية وهذا أحد أهم أسباب حرمانكم من التطلع نحو مسقبل يتسع للجميع.

– وماذا عن العهد الذي قطعته لي ولأخي ولرفاقك؟ هل هذا هو المستقبل الذي كنتم تناضلون من أجله؟ مستقبل لا يتسع إلا للخونة وبائعي ضمائرهم من أجل حقائب وزارية.. ليشتروا صمتكم عن القهر والظلم الذي تعرض له كل من آمن بتحقيق الأفضل لهذا الوطن.. بالنسبة لي أن أعلق بالماضي أشرف لي من تزوير المستقبل وتدمير الضمير وإحباط تضحيات الرفاق.. أنت وأمثالك من يجب تصنيفهم في خانة ذوي القدرات المتواضعة.. لأنكم عاجزون عن إدراك حقيقتكم.. بعتم كل تضحيات أبناء الشعب واليوم تقبضون ثمن نضالكم.. خسئتم أيها الجبناء.. لعنة أخي صالح ولعنة كل شرفاء هذا الوطن الذي يقتات على دمائهم واختفائهم ستلاحقكم دائمًا.. مهما تهربتم أو تظاهرتم بالدفاع عنهم.. فهمت الآن لماذا تخلى عنك رفاقك ولماذا قطعت كل صلة لك بهم.. رغم أن كمال وسميرة حذراني منك.. لقد كانا محقين في كل كلمة قالاها عنك... لم تكف سوار عن إرباكه بل استمرت قائلة:

– أتتذكر حين رفضت أن تذهب لحضور زفاف كمال وسميرة أقرب أصدقائك! في ذلك اليوم فهمت أنك تتهرب منهما أو بشكل أصح تتهرب من انعكاس زيفك في مرآتهما.. شعر أحمد أن حصونه سقطت دفعة واحدة أمام غضبها، فبدأ يفكر كيف يستطيع أن يفلت من هذه المحاكمة ولو بطلب التأجيل إلى جلسة أخرى، يكون قد استعد لها جيدًا. فهو خبر دراسة هفوات القانون. فلم تترك له مجالًا لذلك، لأنها كانت

قد قررت يومها أن تجعل تلك المحاكمة بدون مداولات ولا تأجيل. فاستطردت قائلة:

– بعد مرور يومين من زفافهما ذهبت في زيارة لهما.. وقد أخبراني عن سبب انقطاع علاقتك بهما.. وبكل علاقاتك وأموالك المشبوهة.. لقد بعت قضية أخي صالح ومن معه.. وقبضت الثمن.. راتب أستاذ جامعي وراتب برلماني وراتب وزير في الطريق...

انتفض أحمد وطالب بالاعتراض عن تلك التهمة الثقيلة، وبدون تفكير أراد أن يبرر فقال:

– تلك ترهات أخرى سببها الحقد والغيرة.. فكمال وسميرة كانا يتربصان بنجاحي.. وأنا لم أبع أحدًا.. وأخوك صالح ومن معه دفعوا ثمن عنادهم.. وكان يمكنهم أن يقودوا البلد بسبب تعنتهم إلى الهاوية.. لذلك هو لا يزال قابعًا في السجن..

لقد خانه لسانه، وطغى عليه انفعاله، وباح بما لم يكن عليه أن يبوح به. اكتشفت أنه بنى لها صرحًا من الأكاذيب والأوهام. لقد كان دائمًا يقسم لها بعدم معرفة مكان أخيها صالح، وأنه يتبنى قضيته وقضية من معه طوال فترة نجاحاته. وهاهي عاصفتها تسقط ورقة التوت عنه لينكشف أمامها عاريًا، كسيف لم يعد غمده مغريًا. رمت سوار بفنجان قهوتها على المكتب، وقامت مذعورة وهي تقترب منه كثيرًا، بينما هو يحاول أن

يتدارك فكرة من بين الأفكار التي تتطاير أمامه، لعله يجد إحداها تنفعه في صد شرارة غضبها. ثارت في وجهه وهي تصرخ:

– لقد بعت نفسك ودمرتها يا أحمد.. للأسف يبدو أن هناك من أدمن تدمير نفسه قبل أن يدمره أعداؤه! أنت لم تكن سوى صاحب مصلحة.. وصاحب المصلحة جبان! يتجاهل من يقدم له الحب ليرتمي في أحضان من يشتري كرامته بأبخس الأثمان.. وثقت بك لأنك كنت في نظري رجلًا صاحب مبادئ.. وقناعات.. لا يمكن أن يبيع نفسه من أجل السلطة والمال.. لكنك بمجرد أن حصلت عليهما ظهرت حقيقتك وسقط قناع الرجل اليساري المناضل الشريف عنك..

شعر أحمد بإحساس مجهول وغريب، لم يشعر به منذ أمد طويل. كان شعورًا يكتسح قلبه فلم يحاول الاعتراض أو المقاومة، بل سلم قلبه لهذا الإحساس القوي والغريب، وانبعث من عينيه بريق من الحزن والأسف، ونظر إليها نظرة تشع حزمًا وقال:

– لو كنتِ مكاني ما الذي ستفعلينه؟! كنت ستقومين بما قمت به أو أكثر.. أنا لم أبع نفسي بل أخذت ما أستحق منهم.. لأنني كنت مؤمنًا بأن النضال من داخل مؤسسات الدولة ضرورة وطنية.. اقتنعت بضرورة بسط أيادينا للجميع لنتخلص من خصوماتنا المجانية مع الدولة وحقدنا الأعمى تجاهها.. كان لا بد من تقديم مصلحة الوطن واستقراره على عنادنا الغبي الذي كان سيقضي على الصالح العام المشترك.. قضيت

سنوات أيضًا في السجن ظلمًا وعدوانًا.. عذبت وقهرت.. ماذا استفدت حينها؟!

قام من مكانه وهو يحاول استدراك توازنه. لقد وجد مخرجًا ظنه سينقذه من مصيدة أتقن بناء شراكها بنفسه. وبدون أن يوجه نظره نحوها، حاول أن يخفض من نبرة صوته، لعله يكسب عطفًا من سوار التي أحبها. واستخرج تلك النبرة من ذاكرته لعله يفي بمراده. هو يعلم أن وضعه لا يحسد عليه. كان قد فقد احترام سوار إلى الأبد، أما الآن فهو في طريقه إلى فقدانها إلى الأبد. ومع ذلك ها هو يحاول استدراك ما يمكن إدراكه، بمنطق لا يؤمن به إلا هو، أما سوار فلم تكن تسمعه ولا حتى تراه. لقد سقط أمامها قناع الماضي، وبدأت ترى المستقبل، أما ما يدور في حاضرها فقد بدأت تخسره كما خسرت من تحبهم. واستمر هو في الحديث قائلًا:

– وماذا استفاد غيري من المناضلين اليساريين الذين ظلوا يغردون خارج سرب النظام؟! لم يستفيدوا شيئًا! وكل ما جنوه هو الألم والفقر والضياع.. إنها مسألة اختيار يا سوار.. وأنا اخترت أن أناضل بقناعاتي داخل الإطار الذي حدده النظام.. وهو على الأقل إطار يوفر لي ظروفًا أحسن وشروطًا أفضل.. ولو لم أقبل بها لقبل بها غيري واستفاد منها.. ولبقيت أنا أتخبط في الفراغ والوهم.. بعدما أصبح النضال كالحمار الصغير يركبه طويل القامة وقصيرها..

كان يقول هذا ويسترق النظر إليها لعله يلتقط أملًا بين طيات سطور ما يقول، وعندما لم يجد منها مقاومة ظن أنه قد فاز بصمتها، ونجح في تأجيل قضيته إلى حين عودة ابنه من إتمام دراسته. واستمر في تغيير نبرة صوته حتى يستعطفها..

– والآن بعد أن وفرت لك ولابنك أفضل وأرقى وأفخم ظروف العيش والسعادة، تأتين اليوم وبكل جحود تلقين عليَّ محاضرة في المبادئ والكرامة.. تذكري يا سوار أن لا كرامة مع الجوع.. الخبز أولًا ثم الكرامة ثانيًا!

أضاف قائلًا بهدوء وبلهجة حالمة وهو يجلس على مقعد مكتبه بكل أريحية..

– من السهل يا سوار أن ندعي المثالية.. لكن مهما كنت مثالية ستجدين من يكرهك.. حتى الملائكة تكرهها الشياطين!

قالت وهي تطل من النافذة شاردة البال، وضباب الصدمات غطى على بصرها حتى كادت تعجز عن رؤية ما بخارجها:

– لست أدري كيف أصبحت بهذه القسوة والأنانية! وكيف أصبح قلبك بهذا البرود! لذا تذكر دائمًا أن القلوب الباردة كالمنافي.. عاجزة عن التحول يومًا إلى وطن!

قاطعها بتوسل وهدوء، وهو لم يتجرأ أن يلتفت نحوها، بل بقي متسمرًا في مقعده ينظر نحو الباب:

– ماذا تقصدين بكلامك يا سوار؟!

أجابته بجملة فيها شيء من الإيحاء..

– أقصد أن مكانتك اهتزت في عيني.. ومن تهتز مكانته في العين تسقط قيمته من القلب..

استدار نحوها ببطء وتأملها طويلًا وقال:

– أنت على حق!

كان بكلامه هذا يعلن عن هدنة، وطلب في تأجيل القضية إن استمر فيها سيخسر سوار إلى الأبد. وكذلك سوار، لم تكن ترغب في الجدال أكثر من ذلك، كان يكفيها ما لحقها من أذى في ذلك اليوم، لقد تحملت الجفاء والخيانة والاحتقار واختفاء الأحباء من حياتها. فالتفتت إليه ونظرت بألم وقالت، وكأنها تتابع فكرة ما:

– أتدري ما هو أسمى اختيار يمكن أن نتخذه كبشر؟

قال بمرارة وخضوع:

– ما هو يا سوار؟!

أجابته قائلة وكأنما تريد إنهاء قصة ما بإعياء وجهد عنيفين:

– أسمى اختيار يمكن أن نتخذه كبشر هو أن نختار "الحب" حين نملك ما يكفي من السلطة والقوة للانتقام! لكن يبدو أننا لن نختار الحب في حالتنا هذه! فأنت اخترت مصلحتك وأنا سأختار حريتي..

كانت عيناها تلتهبان ببريق محموم، وكان الغضب قد اكتسح كيانها، بينما ظهرت ابتسامة باردة تحوم على شفتيها. كانت تحس بإعياء فظيع، وكانت تدرك تمامًا مدى تألمها وفداحة خسارتها. لقد خسرت كل شيء، عائلتها، أحلامها، حبها وحتى أمومتها، لم يتبقَ لها سوى وضع توقيع على تلك الورقة التي احتفظت بها منذ زمن طويل. أخرجتها من جيب تنورتها ووضعتها فوق المكتب. اندهش أحمد لرؤية تلك الورقة غير موقعة من طرف سوار. وتذكر أنه كان قد اتفق معها على أن يتم الطلاق بعد عودة ابنهما من الدراسة بباريس. فانتفض مسرعًا وهو يقول:

– أرجوك لا تدمري مستقبل ابني لا يحق لك التصرف فيه..

نظرت إليه ببرودة فالتزم الصمت. لقد قرأ في عينيها كلامًا لا يريد أن يسمعه منها. فتراجع قليلًا معلنًا استسلامه، فوقعت سوار على الورقة، ثم خرجت مسرعة وأغلقت الباب بقوة. أخذت حقيبة سفرها من الخادمة التي كانت تنتظرها بالباب الداخلي، ثم خرجت من باب الفيلا الخارجي أمام أعين أحمد الذي كان يتتبعها من نافذة مكتبه.

الفصل الثامن

كانت تمطر في ذلك اليوم، وكانت يدي اليمنى قد خدرت بسبب جر الحقيبة الثقيلة. لم أعد أستطيع تحريك ذراعي. لقد مرت عواصف الأحزان فوقي، وتركتني يائسة وفارغة من الحياة.

تقدمت إلى الشارع قليلًا، ولوحت بيدي اليسرى لسيارة الأجرة التي كانت تظهر قادمة نحوي من آخر الشارع. لم أقوَ على الاستمرار في جر حقيبتي الكبيرة. وكأن كل ذلك الأسى الآسر لم يكن إلا كابوسًا ذليلًا أردت دفنه في مقبرة قلبي. ركبت سيارة الأجرة، وارتميت. لم أكن أدري أن الدفن يأخذ كل ذلك الجهد، في الظاهر يبدو بسيطًا، لكنني اكتشفت أنه عندما تدفن شيئًا ما فإنك تضع معه شيئًا من سنواتك الماضية أو الآتية لا يهم، المهم أنك لم ولن تعود أنت الذي كنته. لم أعد أشعر بتحرك السيارة، كأن الحركة توقفت، فسمعت صوت السائق البعيد يناديني ويسألني..

– ما هي وجهتك سيدتي؟

أجبته والتعب يتملكني..

– المطار..

كنت رخوة وكأنني بلا روح، لبثت طوال الطريق شاردة، ساكنة أصغي إلى آلامي وإلى المطر وهو يسقط في هدوء وشموخ. لم أكن أفكر بشيء، وراحت روحي تتقوقع كسلحفاة لم تخرج يومًا من قوقعتها. كنت أسمع نبضات قلبي الخفيفة وضوضاء الشارع. إنني حزينة، أنا أعرف ذلك. لأنه فقط عندما نمضي بعيدًا، ومن ثم نلتفت إلى الوراء، ندرك فجأة كم كنا أشباه سعداء. أما أنا الآن بعدما فقدت كل شيء، أحتاج إلى الوقت وحفنة من نسيان وكسرة صبر لأنتصر على كل الآلام والأحزان. قلبي يختنق، هناك ضباب كثيف يمنعه من الاحتفاء بجراحه التي لم يشفَ منها، وروحي تشققت كأرض لم تهطل عليها الأمطار منذ سنوات. يا إلهي كم هو مرهق حد الموت حفظ التوازن على حبال هذه الحياة. وكم هو هين حد اللاشيء التعثر في أحجار اليأس والتعب.

وصلت أخيرًا إلى المطار، صعدت إلى الطائرة، وأخذت مكاني المحجوز لي. فجأة جلس إلى جانبي رجل خيل إليَّ أنني قد التقيته من قبل. أقلعت الطائرة باتجاه فرنسا، لم أستطع منع ما انفلت من دموعي حين تذكرت موت ولدي المفجع. كان هول موته يتربص بي من كل جهة. أتذكر جيدًا

مساء اليوم الذي أخبرني فيه بسفره إلى فرنسا لاستكمال دراسته، كان في حدود السابعة عشرة من عمره، كان مفعمًا بالحياة، رغم أن الحيرة كانت قد أنهكت روحه المترنحة بين إرضائي وإرضاء أحمد، سألني إن كنت راضية عن سفره إلى فرنسا بعد أن أخذ موافقة والده، تركت له حرية الاختيار. رغم أنه لا أحد منا يختار ما يريده، بل هي إرادة القدر التي تقتفي أثره، ونحن نتوهم أننا ننتصر لخياراتنا في هذه الحياة. وفي خضم شرودي كنت أرفع عيني من حين لآخر، وأنظر مواربة إلى الرجل الأنيق المظهر الذي يجلس بجانبي، والذي يبدو عليه الشحوب والنحول، لأتأكد إن كنت أعرفه فعلًا أم يخيل إليَّ فقط. فجأة سألني بلطف:

– هل أنت بخير سيدتي؟!

نظرت نحوه وأنا متأكدة من أن نبرة صوته لم تكن غريبة عن أذني، فقال بدهشة كبيرة:

– سيدة سوار! لا أصدق عيني.. يالها من صدفة جميلة!

بريق عينيه وسماع اسمي بنبرة صوته الدافئة، عادا بذاكرتي إلى الوراء، ثم تيقنت أن هذا الرجل الأنيق اللطيف الذي يجلس بجانبي، هو السياسي ورجل الأعمال المغربي الذائع الصيت رشيد لهواوي، الذي اعتنيت به عندما كان يرقد بالمستشفى العسكري بالرباط. ورغم حزني الشديد فإنني أحسست براحة كبيرة وبارتباك شديد في الوقت نفسه. لكنه خفف من ارتباكي بابتسامته الدافئة، وقال لي:

– مرَّ على لقائنا آخر مرة سنوات يا سوار.. اشتقت إليك كثيرًا..

– لا أصدق أنني أراك مجددًا سيد رشيد، لقد مضى وقت طويل..

– فعلا عزيزتي، لكن اعذريني على التطفل، لاحظت أن دموعك لم تتوقف منذ إقلاع الطائرة، هل من خطب ما؟

بقيت صامتة ولم أقوَ على إجابته. تفهم سكوتي، ورسم ابتسامته من جديد وغيَّر الموضوع بسؤال آخر..

– هل أنت في زيارة عمل إلى فرنسا أم سياحة فقط؟!

لم أعرف بما سأجيبه، لأن البوح لم يكن يومًا من صفاتي، ولا الحديث عن مشاكلي الخاصة لأيٍّ كان، ولا الاطمئنان لأحد بسهولة، غير أنني أحسست بحاجة ملحة إلى من أبوح له بحزني في تلك الرحلة. فأجبته بملامح جامدة وبثبات تام:

– أنا ذاهبة لجلب جثة ابني من باريس..

تغيرت ملامحه إلى الحزن وقال بنبرة من الأسى:

– أنا آسف جدًّا يا سوار! لم أقصد ذلك.. لكنه خبر محزن وصادم جدًّا، رحمة الله عليه..

وضع يده اليسرى على كتفي الأيمن، وقال وهو يرسم ابتسامة شاحبة على وجهه:

– الموت سيحصد روحي قريبًا أنا أيضًا يا سوار!

أفزعتني إجابته. أحسست أنني في كابوس مزعج يخيم فيه الموت عليَّ، فسألته بذعر:

– ماذا تقصد؟ لقد تماثلت للشفاء عندما كنت تخضع للعلاج عندنا!

– الطبيب أخبرني أن المرض اللعين قد عاودني وانتشر في كل أنحاء جسمي.. وأنني لن أعيش أكثر من ثمانية أشهر..

ثم أعاد إلى وجهه الابتسامة بعد أن غادرته وهو يخبرني بما قاله له الطبيب، وكأنه يرفع الكلفة بيننا ليحفزني على الاستمرار في الكلام..

– على أيٍّ الموت لم يهزمني بعد، ما دمت أقاومه!

أدركت من ممازحته أنه انحاز إلى الحياة وليس إلى الموت، وأنه يود الإفصاح لي بسر هذا الأمر حتى يخفف عني حزني الذي غرقت فيه. كان إنسانًا ينتصر للحياة. أتذكر جيدًا عندما كنت ممرضته وهو يتلقى العلاج بالمستشفى العسكري، كانت حالته ميؤوسًا منها، وقد أخبره الطبيب أنه لن يعيش أكثر من سنة، لكنه لم يكترث لأمر الطبيب وتمسك بالعلاج في وطنه ورفض السفر إلى بلد آخر لتلقي العلاج، رغم أنه من أغنى رجال الأعمال المغاربة، تشبث بالأمل وبابتسامته التي تعكس صلابة وجمال روحه. وها هو القدر ينصب فخاخه لي من جديد لأقع في فخ لقاء هذا الرجل الذي لا يزال متمسكًا بالحياة، التي يشهر ابتسامته في وجهها،

وكأن لسان حاله يقول:

– سيدافع عنك الكثيرون أيتها الحياة.. لكنني الوحيد الذي سيقاتل من أجلك..

كان كمن يقتفي أثر الضياع ليدفنه، أما أنا فكنت ضائعة، وكأنني أضعت نفسي في أنفس كثيرة، ولم أعد أستطيع العثور عليَّ، ولا أعرف من أنا. ربما هم كثيرون الذين فقدتهم، لكنني لا أجيد المراثي لأقدم العزاء لي ولهم. لا طريق الآن إلا هذه الطريق التي سأقطعها، وبجانبي هذا الرجل الذي يقاوم الموت، كأنني أستمر بأداء دوري بعد انتهاء مسرحية الحياة، وكل المشاهد التي أؤديها وداع. أحسست أنني ممددة على أرصفة الموت، أحتسي رشفة الانتظار، وأتوقع كل شيء من لا شيء. أعرف أن الموت محتم علينا جميعا، لكن لم أكن أعرف أن موتي محتم على أيدي من أحببتهم، ومن كسرت نفسي لأجلهم. هكذا أنا لا أفلت شيئًا من يدي قبل أن أكسر نفسي لأجله، لذلك يكون الإفلات والتخلي سهلا للغاية حينما لا يدرك الآخر أنني أكسرني لأجله.

– هل أنت نائمة يا سوار!؟

انتبهت واستفقت من شرودي، واعتدلت في جلستي، وهززت رأسي بما يفيد أنني لم أكن نائمة.

سألني برفق...

– ترى في أي بحر من الأفكار كنت غارقة أيتها الريفية العنيدة؟

كان دائمًا يناديني بهذا اللقب عندما كنت أزوره في الصباح الباكر لأطمئن عليه، وأرفع تقرير حالته الصحية إلى الطبيب، حينها كنت أنزعج من ملاطفته لي بهذه الصفة. كانت صفة لصيقة بنا نحن الريفيين والريفيات، وكنا ندفع لقاء الاعتزاز بهذه الصفة ثمنًا غاليًا على مر الزمن. ورغم أن رشيد كان يذكرني بهذا اللقب عن حسن نية ومن باب تلطيف الجو بيننا، فإن جرح ذاكرتي لم يكن قد اندمل بعد، فنزف حنينًا من جديد، كان حنينًا قويًا وكأنه صهيل جياد في قلبي يصم الآذان، ليذكرني بكل من فقدتهم، تذكرت أبي وأمي وإخوتي من جديد، تذكرت أخي صالح الذي اختفى ولم يعد. كانت الذاكرة تحرضني على التذكر كلما قلت يومًا: سأنساهم جميعًا، سأنسى من أنا ومن أين أنا ومتى وكيف أتيت. وها هو هذا الرجل الذي كنت قد نسيته أيضًا يذكرني بكلمة واحدة فقط، الريفية العنيدة التي ادخرت حزنها لموت ابنها الوحيد، كمن يأوي إلى حتفه دون أن يودع الأوجاع، ترى ماذا يفعل الحب والموت بامرأة اجتاحها الوهم؟ أيهما الآن أقوى وأقدر، وبوسعه أن يروض ظلام هذا الكون الذي استوطنني؟ فأجبته بعد مخاض صمت طويل:

– تتبادر إلى ذهني أفكار غريبة أحيانًا! كنت الآن أتمنى لو كنت بحرًا أغرق فيه..

أجبته وأنا شاردة في عظمة المحيط الذي نطير فوقه، فقال مازحًا:

– ومن أين تأتين بمثل هذه الأفكار؟!

– من الحنين الدفين، ومن الماضي الذي لا زلت عالقة فيه!

خيم الصمت علينا وتلحفت روحي بالسكون. كنت قد فقدت رغبتي في الحديث. لأنني تذكرت جيدًا أنني في شبابي الذي ولى ولن يعود، وعندما رأيت أحمد لأول مرة تملكني السهاد ولم يغمض لي جفن طوال الليل، ومع طلوع شمس الصباح، تأججت النار في قلبي، ولم أستطع مفارقة الشباك المطل على الثانوية، حتى رأيت أحمد مقبلًا بهمته ونشاطه ليدرس تلاميذه. كنت سعيدة أعيش يومي برحمة السماء وإشراقة وجهه. كنت متيقنة حينها أن هذا الرجل سيكون مصدرًا لسعادتي. مع الوقت علمتني هذه الحياة أن هناك فرقًا كبيرًا جدًّا بين اليقين وبين الوهم الذي يرتدي قناع اليقين. ولكنني غفلت أنه لكي أتبين الفرق بينهما، كان لا بد أن أعلن الشك، ولو مرة واحدة على ما ظننته يقينًا، وأن أتوقف عنده لإعادة النظر فيه من حين لآخر، لكنني لم أفعل. فلا يعقل أن نسلم قلوبنا لوهم الحب، وأرواحنا لوهم السعادة. فهمت الآن بعد أن أصبحت على هيئة أوهامي، أنه كلما اتسعت مساحة الشك لدينا، تقلصت بالمقابل مساحة الوهم واقتربنا أكثر من اليقين.

نحن ننبهر.. نحب.. نشتاق.. نضحي.. ثم نضحي أكثر.. فندرك بعد فوات الأوان أن من أدهشونا وأحببناهم ربما لم يكونوا على تلك الدرجة من المثالية، ربما فقط لم نستطع أن نراهم على حقيقتهم، حين أحكم الوهم

قبضته علينا، أو ربما هم كذلك، ونحن الذين عجزنا عن رؤية الحقيقة حين أحكم الوهم أيضًا قبضته علينا.

لما وصلت إلى مطار باريس شارل ديغول الدولي، كان السيد رشيد مصرًّا على مرافقتي حتى الفندق الذي حجزت للإقامة فيه، رغم أنني طلبت منه أن لا يكلف نفسه عناء ذلك. لأنني أحسست أن صحته ليست على ما يرام. ورغم أنه رجل في الستينيات من عمره، إلا أن قامته أصبحت كقامة طفل صغير. لأن المرض اللعين كان قد نخر جسده الهزيل. لكن كتفيه ظلا منتصبين وكأنهما يفصحان عن شموخ هذا الرجل، الذي أبى أن يستسلم للموت، وكان الأمل ينير وجهه الأبيض الجذاب، وينبعث كفصل الربيع من عينيه الواسعتين اللتين التهمتا خديه الأجوفين وجبينه البارز.

كان سائقه بانتظاره، حمل الأمتعة عنه، ونبهه إلى وجودي، فحمل أمتعتي أيضًا، ووضعها في خلفية سيارته السوداء اللون والأنيقة. ركبنا معًا في المقعد الخلفي. كان يسعل بشدة طوال الطريق، ويخرج منديله الأبيض بين الفينة والأخرى ليضعه على فمه. كنت متوترة جدًّا، لا أعرف ما الذي سأفعله. وكان سائقه يرقبنا عبر مرآة السيارة والقلق يطل من عينيه، فقال:

– سيدي هل تحب أن أوصلك أولًا إلى فندقك ومن ثم أوصل السيدة إلى حيث تريد؟

أجابه بلهجة شديدة:

– لا أبدًا.. سنوصل السيدة سوار إلى فندقها ونطمئن عليها ومن ثم توصلني..

تدخلت والخجل والقلق يسيطران عليَّ:

– أرجوك سيد رشيد! دع سائقك يوصلك أولًا، لأنك متعب من السفر..

قال بنبرة هادئة:

– دعيني أطمئن عليك أولا يا سوار.. وإن احتجت لأي شيء اتصلي بي على هذا الرقم الموجود بهذه البطاقة.. سأكون سعيدًا بخدمتك كما كنت سعيدًا بتمريضك..

ورسم ابتسامة على وجهه وهو يخنق السعال في جوفه ليظهر لي بأنه على ما يرام. أمسكت البطاقة التي مدها إليَّ ووضعتها في حقيبة يدي الصغيرة وعند الوصول إلى الفندق همَّ بالنزول معي، لكنني رجوته أن يبقى داخل السيارة لأن الطقس كان باردًا جدًّا، فاستجاب لي بعد أن عانقني بحرارة. نزلت من السيارة مرتبكة، لم أكن أتوقع أنه سيضمني بين ذراعيه الدافئتين بتلك الطريقة، وأبعدت طرف نظري قليلًا أنتظر أن يمدني السائق بأمتعتي، في هذه اللحظة بقي السيد رشيد يرمقني بعينيه. أحسست حينها أنها لحظة انعتاقي من الماضي في حضرة سمو نظراته.

كانت نظراته لي كسمفونية مستوحاة من روحه ومستقاة من تلحينه وتأليفه، وبالتالي تعكس إرادته. كان عنوان هذه السمفونية، السعادة والأمل المترتب عنها، والأسباب المؤدية إليها للأخذ بتلابيبها ونفض غبار الوهم عنهما.

انطلقت السيارة، وهو يلوح لي بيده من نافذتها. شعرت أن يده تمتد إليَّ وتحاول الإمساك بقلبي، وأنا على حافة الآمال، وعلى وشك السقوط في بحار اليأس الجارفة. كان يبتسم لي كنبي يفشي سر نبوته ليهديني إلى طريق السعادة، وأنا كمؤمنة تستجيب له بقلب خاشع وبعينين تائهتين. لكن سرعان ما اختفت السيارة في نفق الشارع الطويل، فتذكرت كم كنت دائمًا حزينة مع الذين توهمت أنهم سيسعدونني!

ربما يكون رشيد هو أيضًا كالبقية يعشق الصيد، فيصيد جميع الأشياء التي تبقيه على ارتباط بالحياة. هذه الحياة التي يشعر نحوها بشذوذ عاطفي سافر، لم يكن يعرف أنه قد انغمس فيه من قبل. إنه الموت يتربص بنا جميعًا، وحده يكشف لنا أنفسنا، لكن لا أحد، لا أحد على الإطلاق يرى نفسه عاريًا.

لم يكن لديَّ متسع من الوقت للخوض في متاهات نزوات عاطفية، ولسعات برد مدينة باريس ذكرتني بما ينتظرني. وضعت أمتعتي بالفندق، وأسرعت إلى المستشفى التي يقبع فيها جثمان ولدي. لم أكن أفكر بأي شكل من أشكال الحب لهذه الحياة، ويرجع مرد ذلك إلى أنني لم أعد أشعر

بوجود أي رابط يربطني بها، حتى الماضي لم أعد أتذكر كيف ومتى ولماذا أصبح وهمًا خرافيًّا. يتطلب حصول معجزة لأعود إليه، وأصلح ما يمكن إصلاحه، وأحب من كان عليَّ أن أحب، وأتوقف عن حب من توهمت أنني أحب. أدركت سر انهيار سعادتي. فهل أدركته قبل فوات الأوان أم بعد فواته؟! كنت كمن يستنطق ماضيه. لكن ماذا يفيد استنطاق الماضي إذا كنا نريده أن يجلس على شرفة ذواتنا وأن ينطق بأهوائنا؟ تذكرت حينها حديث جدتي وأنا صغيرة عن الحياة المحتملة. فالحياة المحتملة بالنسبة لها ألا يجتمع علينا حزنان ولا فرحتان. فأي الاحتمالين اللذين لا تزال الحياة تخبئهما لي، بعد أن اجتمعت وأتحدت عليَّ الأحزان؟!

وصلت إلى المستشفى وأنا أحاول أن أداري الدمار الذي خلفه موت ابني بداخلي. كنت أحاول أن أرمم ما تبقى مني، لأقوى على دفن جزء مني في تراب هذه الأرض. لا زالت الطفلة المتمردة تصارع من أجل البقاء بداخلي، لتلعب على حبل هزات المتناقضات، ولتلبي نداء الحياة الذي يغزو العمق ويلتحف الروح، ويرتقي بالنبض سلمًا إلى قلبي، بعدها قد أقتفي أثر الموت وقد أمشي الطرق المؤدية إلى الفناء. طلبت مني إدارة المستشفى إجراء القوانين اللازمة لنقل جثمان ابني من فرنسا إلى المغرب. وكان أول إجراء يتمثل في الحصول على طلب ترخيص من القنصلية المغربية المختصة. توجهت مسرعة إلى هناك، ومعي كل الوثائق الضرورية التي يتطلبها الترخيص. بعد يوم كامل من الذهاب والمجيء

بين الإدارات المختصة، طلبوا مني في القنصلية ترك رقم هاتفي ليتصلوا بي من أجل أخذ الترخيص، لم يكن لديَّ رقم ثابت أوافيهم به، وبدون أن أفكر أعطيتهم رقم رشيد الذي سلمه لي ببطاقته.

عدت إلى الفندق منهارة ومتعبة. كانت الحادثة التي فقدت فيها ابني في أواخر شهر أكتوبر، وكان خريف باريس قد حل، فلم يغمض لي جفن طوال الليل، بقيت مستيقظة مترقبة طلوع النهار، بعينين لا تصلحان للبكاء، وبروح أنهكها التعب، أتبع جنائز أحلامي. وما دمت لن أنام سأحاول استحضار الماضي، فأحيانًا الحنين للماضي ما هو إلا إنكار للحاضر المؤلم.

ألقيت نظرة من نافذة غرفتي بالفندق، التي كانت تطل على أحد شوارع باريس، العاجة بالمارة حتى بعد منتصف الليل. كانت السماء مغطاة بلون الغبار الأسود. كأن ظلام الليل العادي قد تحول إلى اللون الرمادي، بكثرة تلبد الغيوم الحبلى بالأمطار، والتي تطاردها الريح المحملة بالغبار الأسود، وكأنه يتعمد أن يلفعها بلون داكن وقاتم. أغلقت النافذة، وأخذت معطفي البني الذي ألقيته على الأريكة لأرتديه، ووضعت وشاحي الأسود المرقط باللون الأبيض على رأسي، وأغلقت باب الغرفة من ورائي. خرجت من الفندق، وأنا لا أحمل في جيوب معطفي سوى بعض المال، الذي تبقى عندي من النهار، والمكون من بعض قطع معدنية، وأوراق نقدية من الفئة الصغيرة. كنت أسير في شوارع باريس هائمة،

وأنا أنظر إلى السماء بطرف عيني، على إيقاع صدى رنين قطع النقود التي ألعب بها في جيبي، هممت لقطع الشارع كي أتوجه نحو الحديقة العامة التي لم تكن بعيدة عن الفندق، كان الوقت متأخرًا جدًّا، وكانت الحديقة في خلوٍّ تام، ورأس برج إيفل يطل من ثنايا عمقها، زاهيًا برأسه المضيء. وبعد أن اجتزت بوابة المدخل الكبيرة توغلت في الحديقة أكثر فأكثر، أقتفي أثر النور الآتي من رأس برج إيفل، كفراشة أتت قبل موعد حلول فصل الربيع. لم أكن أعرف إلى أين سأذهب؟ ربما نحو مكان ما! ما فتئ ينبثق كالطفرة في ذاكرتي. وفجأة لبثت ساكنة دون حركة، كان صوت الرياح قويًّا ومخيفًا، أدرت رأسي يمينًا ويسارًا دون أن أتقدم خطوة واحدة، وجدت نفسي محصورة في شبه دائرة تحيط بها أشجار عملاقة كثيفة متشابكة، كان هذا المكان كئيبًا غامضًا، زاده حفيف أوراق الشجر غموضًا ورعبًا. وبشكل مباغت سمعت حركة ما وراء الشجر، حركة مريبة ومخيفة، شعرت بخطوات ما تتقدم نحوي، ظننت أنهم لصوص، رميت كل ما بحوزتي من نقود على الأرض، وصرخت عاليًا، ثم ركضت وركضت. كانت تلك الحديقة بمثابة غابة وارفة الظلال، غطت أرضها أوراق الأشجار الجافة الصفراء الذهبية، التي كانت تلمع تحت ضوء برج إيفل. ركضت بسرعة خارقة كما لم أركض يومًا. لم أمتلك الشجاعة كي أقف وألتفت إلى الوراء. كنت جبانة وخفت كثيرًا عندما سمعت نباح الكلاب، الذي كان يقترب مني كلما ركضت. كنت أركض كمن يتخطى

الجثث والأموات، ويتركهم خلفه دون أن يكون مستعدًّا من أجل فعل ذلك، أمضي قدمًا نحو قدري المجهول. فجأة ظهر لي الباب الكبير الذي دخلت منه، تباطأت سرعتي، وتعالى نباح الكلاب من خلفي، لكنني لم أستسلم، ركضت بشدة وبكل ما أوتيت من قوة. كنت أمر بالجدران التي تمتد على طول الحديقة المزخرفة بأعمدة تشبه الأعمدة اليونانية، وكأنني أمر بحلم من الماضي، كنت أجتاز فيه هذه الأعمدة التي تتحدى استقامة الأشجار الهرمة، التي كانت تضاهيها استقامة وثباتًا. وعندما اخترقت الباب الكبير، شعرت بلذة غريبة، وكأنني أبعث إلى الحياة من جديد. وجدت نفسي أمام الشارع الذي قطعته إلى هنا. استجمعت أنفاسي عندما وجدت بعض الشباب يقطعون الشارع وهم يمرحون ويضحكون، وبدأ صدى نباح الكلاب يتضاءل شيئًا فشيئًا، وكأنه صوت سقط وتدحرج في فراغ كوابيسي. خيم عليَّ صمت مطبق وموحش وكأنه يوحي بسكينة القبور. عدلت من وشاحي فوق رأسي، واستجمعت قواي لأكمل المسير. لكن شيئًا ما حدث، شيئًا لم أكن أتوقعه. كانت صرخة مزقت أذيال ذلك السكون. يا إلهي إنها صرخة الشباب الذين كانوا يقطعون الشارع نحوي. كانت حادثة بشعة ومريبة. وكأن وحشًا كبيرًا مدَّ جناحيه لزمجرة الرياح، عندما شعر بوقع أقدام فريسته تنقر على الأرض، وتقترب من حدوده، ثم افترسهم وغاب متواريا خلف حجاب الأفق الكثيف، وهو يحس بشعور الرهبة يفعم قلبه. لم أصدق ما رأيته أمام عيني. كنت

مستسلمة لليأس. يأس لف جسدي وجثم على أنفاسي، يأس تساوى فيه الوجود والعدم. نعم هناك يأس يحيا به الإنسان، كذرة غير مرئية تحركها الرياح كيفما شاءت. وأنا كنت كذلك. لم أستطع أن أحرك ساكنًا لدفع الخطر عن هؤلاء الشباب. أحسست وكأن القدر يثأر مني باستحضار مشهد موت ابني من جديد. كان اليأس في تلك اللحظة يحنطني ويحولني إلى مومياء لا تندهش لشيء، ولا تشتهي شيئًا، ولا تنتظر شيئًا. لا هي حية لتطلب الموت، ولا هي ميتة لتطلب الحياة. فموت ثلاثة شبان أمام ناظري، لم يسد رمق الصدمة التي خلفها موت ابني المفاجئ. وعندما أدركت ذلك فهمت أنني إنسان يضربه الخراب، وعلى وشك أن يفقد قواه بالكامل.

عدت إلى غرفتي بالفندق وأنا شبه مغيبة. أحسست أن الحادثة التي بعثت ألم الفراق عن ابني من جديد، بمثابة السهم الذي انغرس في أحشاء عصفور، أضاع الغصن الذي كان يقف عليه ليشدو آلامه. ارتميت على السرير، كمن يرتمي في يم من الذعر والذهول. أحسست أن جسدي قد اضمحل وضعف، وأنه من المستحيل أن أكون في عداد الأحياء عندما يطلع النهار. أنا ثكلى بفقدان ابني، وبفقدان ما تبقى لي من أمل، لأتشبث بهذه الحياة. بكيت وندبت، وصرخت بعبارات ممزوجة بآلام حادة، قد ينتابها الهدوء بين الفينة والأخرى. كان البكاء يسيطر عليَّ تمامًا، والنحيب بدموع غزيرة تحفر أنهارًا من الأحزان في تجاعيد الزمن. نهضت

من على السرير وتوجهت صوب الثلاجة الصغيرة، التي كانت تحتوي على قارورات من مختلف أنواع النبيذ. شربتها كلها وثملت، حتى هيمن الدوار عليَّ وأثقل رأسي. اتكأت على الكرسي الخشبي الصغير المركون في زاوية الغرفة شاردةً. كانت ذكريات الماضي تحوم فوق رأسي، وتتأرجح بين أنفاسي المرهقة والغاصة بهمومي الهشة. لم أستطع النوم. لم يكن أمامي سوى انتظار الصباح، لأطلق سرب الذكريات من قفص الذاكرة. أخذت سيجارة من علبة السجائر، التي كنت قد ادخرتها لليلة كهذه، تذكرت الليلة اليائسة التي بلغت فيها سن الأربعين، أشعلت عود ثقاب من نيران ذاكرتي، كنت أدخن نفسي بهدوء تام، فكرت أنه إن كنت أراهن على النسيان، فما الداعي لتحصين ذاكرتي. شعرت برغبة ملحة في التقيؤ، فأسرعت حافية القدمين إلى الحمام لأفرغ ما في معدتي، كنت في حالة يرثى لها، غسلت وجهي ونظرت في مرآة الحمام الكبيرة فلم أعرفني. فالمرايا لم تعد تعكسني وكلما طالعت وجهي داهمتني ملامح المختفين والأموات. شعرت بالخوف، فعدت لأرتمي على السرير مجددًا. كنت كغيمة فارة من لعنة الماضي ومن لعنة التذكر، بينما أفق الأوهام يغري الروح بالتريث لأنجو. وتساءلت كيف تحولت من امرأة لا تخشى شيئًا في هذه الحياة سوى بلوغ سن اليأس، إلى امرأة تصارع اليأس ولا تخشى شيئًا سوى بقاء الماضي في الحاضر، الذي يغويني بأن أولد بشكل من الأشكال من جديد. ارتج الماضي تحت رجلي، وتملكني ضحك هستيري وبدأت أخاطب نفسي وأقول:

– كم كنت ساذجة يا سوار حين ظننتِ أن أقسى شيء في هذه الحياة على المرأة هو بلوغها سن الأربعين! الذي توهمت أنه سن يبعث من مطالعه اليأس ليكتم على أنفاس آخر الفرص لي في هذه الحياة! كنت كالحمقى الذين يصل بهم الأمر حد نسج الأوهام بأنفسهم ليقوموا بتصديقها.. لكن لن أسمح لذلك بأن يحدث.. لا أزال أملك فرصة للقضاء على هذا الوهم.. لأنني أدركت الآن أنني لم أعد أخشى من شيء.. وإن كنت في الماضي لم أستطع أن أكون لنفسي سندًا لأحيا سعيدة.. فلن أكون العقبة أمام فرصة السعي إليها..

غفوت بعد ذلك وهذه الجملة تتردد في ذهني:

– أن نسخر من شيء ما بعد أن نيأس من الظفر به فهذا يعني أننا نفكر في تحطيمه..

استيقظت من غفوتي فزعة في الصباح الباكر على وقع رنين الهاتف الموجود بغرفة الفندق، حملت السماعة وبصوت هش..

– ألو نعم!

– صباح الخير سيدة سوار.. نأسف على إزعاجك، لكنها مكالمة طارئة من صديقك السيد رشيد..

– أخبريه أنني نائمة.. ولا تعاودي إزعاجي من جديد.. لأنني أنتظر مكالمة هامة!

أقفلت السماعة بغضب شديد. حاولت العودة إلى النوم لكنني فشلت. وعندما تأكدت من الساعة التي تشير إلى التاسعة صباحًا، وتذكرت أنني أنتظر هاتفًا من القنصلية، تقلبت في السرير ثم انتصبت واقفة وأنا أجر قدمي الحافيتين على مضض، لآخذ حمامًا منعشًا، عله يساعدني في بداية هذا النهار. خرجت من الحمام، ارتديت ملابسي التي ارتديتها بالأمس. لم أشعر برغبة في التغيير، كنت غير راضية عن حالتي. شعرت بكآبة مرة زاد من مرارتها الطقس المكفهر المتقلب، الذي لا صحو فيه. فقد كانت السماء الداكنة الرمادية اللون لم تقرر بعد إنزال المطر الذي تشبعت به شوارع باريس. وأنا أجلس بجانب الهاتف أنتظر مكالمة المستشفى، باغتني شعور مفاجئ من الفزع. يا إلهي ما الذي فعلته. لقد تذكرت للتو أنني أعطيت لإدارة القنصلية رقم هاتف رشيد ليبلغوني بأي مستجد. رفعت سماعة الهاتف لأطلبه، فلم أجد البطاقة التي بها أرقامه. ثم توجهت مسرعة إلى الاستقبالات، وطلبت منهم أن يعاودوا الاتصال برشيد، رن الهاتف، لكنه لم يجب، رن للمرة الثانية والثالثة وما من مجيب. وبعد أن يئست توجهت صوب الباب للخروج من الفندق، كي أذهب مسرعة إلى إدارة القنصلية، ثم سمعت موظفة الاستقبالات تناديني..

– سيدة سوار.. سيدة سوار..

التفت إليها متوترة وأردفت..

– السيد رشيد على الخط..

توجهت إليها بخطى متسارعة، وأمسكت سماعة الهاتف بعد أن شكرتها، وقلت بصوت يتخلله الخجل..

- ألو.. صباح الخير سيد رشيد..

- صباح الخير سيدة سوار.. آسف كانت لدي مكالمة مهمة..

- لا داعي للأسف.. لقد اتصلت بي صباحًا وقد كنت نائمة..

- نعم أخبروني بذلك المهم اتصلت بك لأبلغك أن إدارة القنصلية اتصلوا بي، وأخبروني بأن إجراءات نقل جثة ابنك إلى المغرب لا يمكن أن تتم.. لأن الوثائق التي أعطيتيها لهم كانت تنقصها رخصة بمكان الدفن بالمغرب..

قاطعته بتوتر..

- يا إلهي! لقد حاولت جمع كل الوثائق الضرورية قبل السفر..

- لا عليك لقد تكفلت بالأمر..

- ماذا تقصد؟!

- لقد اتصلت بأحد معارفي بالمغرب، وشرحت الوضع.. واستطاع أن يرسل لي تلك الوثيقة عبر الفاكس..

- لكن كيف استطاع ذلك؟

– لم يكن أمرًا شاقًّا.. فالوثيقة بسيطة وهي تتضمن فقط مكان الدفن بالمغرب.. اذهبي الآن إلى المستشفى وفكري في إكمال إجراءات نقل الجثة..

– شكرًا سيد رشيد.. لاأعرف كيف سأشكرك..

– لا داعي لذلك يا سوار إلى اللقاء..

– إلى اللقاء!

ثم انقطع الخط. مددت سماعة الهاتف إلى موظفة الاسقبالات، ثم طلبت منها أن تحضر لي على الفور سيارة أجرة تقلني إلى المستشفى.

كان الشارع المؤدي إلى المستشفى طويلًا وخاليًا من المارة، تحيط به بنايات كبيرة ذات طابع معماري قديم، بما فيه الأديرة والمكاتب. كان المطر يهطل مصحوبًا برياح قوية، يهطل من إحدى الجهات، ثم بعد أن يتغير اتجاه الرياح يصب من الجهة الأخرى. ظل الجو على هذا الحال إلى أن توقفت سيارة الأجرة بباب المستشفى. وكأن المطر يهطل وفق منهاج منظم. توجهت مسرعة إلى مكتب الإدارة لإتمام مراسيم نقل الجثة. سألت الموظف المكلف..

– صباح الخير سيدي.. هل توصلتم من القنصلية المغربية بكل الوثائق اللازمة لأستلم جثة ابني؟

أجابني بكل لباقة:

– نعم سيدتي.. ينقصنا إمضاؤك على بعض الأوراق فقط..

أخرج من درج مكتبه الملف الخاص بنقل جثة ابني، وناولني بعض الأوراق للتوقيع، تصفحتها بعجلة، ثم وقعت عليها. مددت له الأوراق وقال:

– يمكنك الآن تسلم جثة ابنك، ومرافقتها في سيارة الإسعاف التي ستوصلك إلى المطار، لقد تم حجز مكان لك وللجثة بالطائرة التي ستقلع من باريس زوالًا إلى الرباط..

شكرته ثم خرجت على الفور.

وقفت عند باب المستشفى أنتظر سيارة الإسعاف، وللحظة سمعت سائق سيارة الإسعاف يهمس لي كي أصعد للركوب إلى جانبه..

– سيدتي تفضلي بالجلوس!

تقدمت نحوه بخطى ثابتة، وانحنيت نحو باب السيارة، وهمست له وكأنني خائفة من إيقاظ ابني من سباته الأبدي، وقلت..

– أفضل الجلوس في الخلف رفقة التابوت.. إن سمحت لي بذلك..

بدا الرجل مذهولًا من طلبي، وحملق في عيني ثم هز رأسه وقال:

– لا مانع لديَّ سيدتي.. وإن غيرت رأيك فيكفي أن تنقري على الجرس الأحمر وسأقف حينها..

فتح لي الباب الخلفي لسيارة الإسعاف، كان التابوت أمامي، صعدت وقدماي ترتجفان، أغلق السائق الباب عليَّ، وفجأة انطلقت سيارة الإسعاف نحو المطار. أخذت مكاني إلى جانب تابوت ابني، فكرت في تجاهل رهبة الموت التي تطوقني. لم أرَ ابني مدة سنة كاملة. كان البعد قد أخذه مني..

– والآن يا بني أصبحت هنا في هذا التابوت أكثر بعدًا كأرواح الملائكة.. وقريبًا أيضًا كالضباب.. تخنقني آلام فقدانك بصدري متشابكة.. هل تسمعني يا بني؟

سألت نفسي وكأنني أسأله للمرة الثانية:

– ألا تعرف ما الذي يعنيه أن تكون ميتًا؟! وأن أناديك ولا تجيبني وكأنك السراب!

فجأة سمعت صوتًا عميقًا ينبع من داخلي، فكرت في تجاهل هذا الصوت، وحاولت التظاهر بعدم سماعه، لكن دويَّه داخلي كان قويًّا، قويًّا بما يكفي أن يسمعه العالم بأكمله:

– لا يمكنك أن تعرفي ما الذي يعنيه أن تكوني ميتة.. لأنك لست كذلك.. أنت حية يا سوار!

هكذا همس الصوت العميق بداخلي. فسألته بجرأة:

- إذن أخبرني، ما هو الموت؟

همس الصوت العميق بداخلي مرة أخرى وقال..

- ما هو الموت؟ يا له من سؤال وجودي عظيم! لا حقيقة له عند البشر، سوى أنه ظلال من الفناء تحاصركم.. إنه سر غامض يتلبس بكم، ويغلف بغموضه صميم وجودكم.. سر كلما حاولتم سبر أغواره، يزداد عمقًا وغموضًا..

عندما أدركت أن هذا الصوت الغريب الذي أسمعه موجود بداخلي، ترسخت لديَّ فكرة آنية بأنني ربما أصبحت على وشك الجنون. كان أثر الصدمة بسبب موت ابني يمتد بي. ثم شعرت أن صدى هذا الصوت بدأ يزعجني ويخنقني، ويتردد داخلي بإلحاح ويهمس لي:

- سوف تعتادين على موت من تحبينهم.. كما تعودت على اختفائهم من قبل.. لكنه من المستحيل نسيانهم..

ازداد شعوري بالاختناق، عندما بدأت أسمع صوت زخات المطر بدأت تسقط مجددًا بإيقاع رتيب وممل على سيارة الإسعاف، كان صوته يصل إليَّ بعيدًا، اكتسحتني حرارة مفرطة رغم البرد، أزلت المعطف الذي كنت أرتديه والتوتر يتملكني، ومددت يدي نحو الجرس الأحمر لأطلب المساعدة من السائق، فلم أستطع، كان يبدو لي بعيدًا ويتمايل مع حركة

سيارة الإسعاف، ففتحت النافذة بصعوبة شديدة، ثم سمعت صوت السائق يقول:

- هل أنت بحاجة إلى مساعدة ما سيدتي؟

أجبته بنبرة مرتبكة:

- لا شكرًا أنا بخير..

أخرجت رأسي من نافذة السيارة واستنشقت رائحة المطر، شعرت بنسمات البرد القارس المحمل بالمطر يداعب وجهي، أدركت أنني حية، وأنني فقط كنت على وشك أن أفقد صوابي، والآن بدأ يعود من جديد. كان وجود قطعة مني في هذا التابوت اللعين، قد حطم الكثير من قواي النفسية والبدنية، لكن رغم ذلك كنت مستعدة لإعادة النظر في حياتي. لأن الموت الحقيقي هو أن تموت بداخلي الرغبة في الحياة. ورغم أنني لا أسعى إلى الخلود ولا أتوق إلى الأبدية، فإنني تخيلت نفسي كطائر العنقاء، الذي عندما يحس بأن ساعة موته قد اقتربت، يعمد إلى إقامة عشه من أغصان الأشجار، ومن ثم يضرم في العش النار التي يحترق هو في لهيبها، وبعد مدة ينهض من بين الرماد ليبعث طائر عنقاء جديدًا.

تركت النافذة مفتوحة لتذكرني بالعالم الخارجي، عدت إلى مكاني بجانب التابوت، حاولت السيطرة على عقلي. لأن سعيه إلى الكشف عن حقيقة الموت والحياة في هذا الوضع بالذات، كان قد تخطى الحد الأدنى

من قدرته على تحمل التفكير في ذلك. كل ما أدركه الآن أنني لا أزال على قيد الحياة، وأن الموت يبقى النهاية التي سنواجهها جميعًا، والمصير الذي نتساوى أمامه جميعًا مهما اختلفنا، ومهما اختلفت طريقة موتنا، فالأرض سوف تموت وكذلك كل حياة عليها. فجأة فرمل السائق وأخبرني بأننا قد وصلنا إلى المطار.

كانت الطائرة المسافرة إلى الرباط ستقلع من مطار باريس على الساعة الثانية عشرة والنصف زوالًا. وصلت منهمكة، بعد قضاء أكثر من ثلاثة أيام في باريس، أتأرجح فيها بين المستشفى والقنصلية من أجل نقل الجثمان إلى المغرب. لم يكن المطار مكتظًّا كما وجدته لحظة وصولي. وكأن من يصل إلى هذا البلد يصعب عليه مغادرته بسهولة، فيفضل البقاء فيه إلى أن يعود إلى بلاده جثة هامدة. توجهت نحو الطابور الأطول في المطار، وهو الذي يجب أن أقف فيه لإتمام الإجراءات والفحوصات الأمنية، قبل التوجه رفقة التابوت إلى الطائرة المقلعة إلى الرباط. وقفت في الطابور الممتد إلى الإدارة المكلفة بنقل الجثث وراء زوجين يهوديين من أصل مغربي، وقد عرفت ذلك من مظهرهما وحديثهما باللغة العبرية التي كانت تتخللها بعض الكلمات الدارجة المغربية، كنت متعبة جدًّا ولم أتحمل بكاء الزوجة ونحيبها، بينما ظل الزوج يعانقها في محاولة منه للتهدئة من روعها. يبدو أنهما فقدا شخصًا عزيزًا عليهما. لم أحاول معرفة مشكلتهما لأنني كنت في مزاج لا يسمح بالخوض في مشاكل الآخرين. وأخيرًا وبعد انتظار طويل

نسبيًّا، وصل دوري للإدلاء بالمعلومات الضرورية، خاطبني الشرطي وهو موظف منتدب من الوزارة المكلفة بالجالية المغربية وشؤون الهجرة بالمطار باحترام وقال:

– ستتفضلين معي لإلقاء نظرة على جثة ابنك سيدة سوار للتأكد منها.. ومن ثم نكمل الإجراءات الإدارية الضرورية.. وبعدها يمكنك الصعود إلى الطائرة..

وبمجرد ما إن سمعت منه الجملة الأولى من كلامه، حتى نهشت قلبي الآلام من جديد، ولم أعد قادرة على سماع باقي كلامه، وبدأت في غزو روحي المنهمكة. لم أكن أدري ما ستكون ردة فعلي عند رؤيتي لابني كجثة هامدة. فقلت له بصوت حشرجه الخوف، دون أن أدري إن هو أنهى كلامه أم لا..

– حاضر سيدي!

دخلت برفقته إلى المكان المخصص للجثث، كانت خطى الشرطي تسبقني، بينما أنا أحاول اللحاق به بخطى مرتعدة وصغيرة. وصلنا إلى التابوت الذي يحمل جثة ابني، وقفت أمامه ساكنة منتصبة، ثم توجه إليَّ الشرطي بالكلام قائلًا:

– هل أنت جاهزة لفتح التابوت سيدتي؟

أجبته وأنا أبتلع جفاف ريقي الذي علق ببلعومي..

– نعم أنا جاهزة! تفضل افتح التابوت..

فتح التابوت وفتحت معه جراح الماضي. يا إلهي كانت جثة ابني مشوهة، بالكاد استطعت أن أتعرف عليه. كانت رائحة الموت تنبعث من جسده الهزيل. تملكتني نوبة من البكاء لم أستطع منع نفسي منها، ثم سقطت على التابوت وأنا أحاول أن أعانق ابني. أمسك الشرطي بيدي وحاول تهدئتي وقال بنبرة من الأسى:

– أرجوك تماسكي سيدتي! ليرحمه الله..

ثم ناولني منديلًا من جيبه. أمسكت بالمنديل، وحاولت التماسك كما طلب مني. لا لشيء ولكن حتى لا تفوتني لحظة وداع لم أكن أنتظرها. مسحت دموعي، ووقفت منتصبة من جديد، ثم قال لي الشرطي:

– سيدتي هل تأكدت من أن الجثة لولدك؟

هززت رأسي بما يفيد الإيجاب، وطلبت منه أن يمنحني بعض الخصوصية رفقة جثة ابني، فأجابني بالقبول بينما تراجع ببعض الخطوات إلى الوراء، ليضيء باقي الأنوار ويفتح الستائر. وكأنه أراد أن يبدد ظلال السواد التي كان قد أنبتها موت ابني تحت عيني. وأضاف قائلًا:

– أرجوك لا تتأخري سيدتي.. فموعد إقلاع الطائرة أصبح قريبًا..

ثم انصرف في احترام تاركًا إياي أواجه عبث الحياة وجهًا لوجه. عندما

تأكدت من ذهاب الشرطي، بدأت بالبحث في حقيبتي يدي الصغيرة عن أوراق وقلم، لأكتب رسالة أوقف فيها زحف الماضي على حاضري. بحثت فلم أجد غير قلم، فحملت المنديل الأبيض المبلل بدموع حرقتي، ثم ركعت على الأرض وكتبت..

من سوار إلى الماضي

باريس 12 أكتوبر 2003

أنا سوار أمغار، الريفية التي تركت كل شيء لتتبع قلبها، أنا التي تركت أمي وأبي وأصدقائي من أجل الحب.. لا وقت لأعرف الآن معنى هذا الذي أكتبه أيها الماضي.. ولكنني أعرف كم ضحيت من أجل الحب.. وكم كلفني ذلك لأبقى أسيرة لك أيها الماضي.. من اليوم سوف لن أنتمي إليك.. قررت تحرير نفسي منك.. من دون الحساب للخسارة التي ألحقتها بي.. فأنا أؤمن أن الخسارة دائمًا من نصيب من لا يستحقونها.. أيها الماضي إذا قرأ أحمد هذه الرسالة أرجو أن لا تخبره بأنه لا يستحق أن أكتب له.. لكن أخبره بأنه احترامًا لموت ولدي الذي كان ثمرة الحب الذي جمع بيننا، أن يكرم هذه الثمرة بالدفن.. وإن كان إكرام الميت دفنه كما علمنا أجدادنا، فأخبره أن إكرام حب ميت دفنه أيضًا.. لعله يصبح انبثاقًا مكثفًا للماضي الذي لن أعود إليه.. لأنه لم يعد يمتلك من المرونة ما يكفي ليتناسب مع تموجات أحلامي.. ولأنني الآن

وجدت أعماقي التائهة وتعلمت كيف تصنع الأفكار التي سأتحدى بها عظمة هذه الحياة.

سوار أمغار الريفية التي تركت كل شيء لتتبع قلبها

باريس مطار شارل ديغول

طويت المنديل، ثم وقفت دفعة واحدة لأشبع نفسي من فيض النور الذي كان ينبعث من تابوت ابني، فنظرت إليه بكل حواسي، وأدركت أن هذا الجزء الذي سيدفن هناك مع الماضي، هو جزء من الكل، الذي هو أنا. لا أنكر أنني لم أستطع أن أرى كل شيء دفعة واحدة. فحواسي لا تدرك الأشياء إلا على درجات لتكون فوق طاقة دهشتي من تحرري من الماضي. وضعت المنديل في التابوت وناديت على الشرطي، ومن ثم خرجت من ذلك المكان، كمن كان له أمل تحطم في انتظار السعادة، لكنه قرر أن يصنع من حطامه أملًا ليواصل السعي إليها من جديد. إن في السعي إلى السعادة، سعيًا إلى الحياة، والسعي إليهما حكمة تنفذ إلى أعماق الوجود، سعي يقودني نحو حب آخر يحصنني من الشعور بالخوف والوحدة.

لم أصعد الطائرة كما طلب مني الشرطي، بل سرت وحيدة عند بوابة الوصول، وكأنني وصلت من سفر ما للتو. إنه سفر في الزمن، حيث لا يسمح لك بالعودة إلى الماضي. عند البوابة كان جميع المسافرين يذهبون للارتماء في أحضان من كانوا بانتظارهم، وبقيت لوحدي أتأمل الوجوه،

علني أجد شبح حاضري وسط هذا العالم الفسيح. تقدمت بخطى ثابتة نحو الخارج، فتوارى خلف ظلي ظل آخر، كان يتسلل إليَّ. كأن القدر يدفع به ليتوحد بظلي فيصبحان ظلًّا واحدًا. تجعد قلبي كفاكهة يابسة، ثم سمعت صوته القريب الذي تلاشى في اتساع المسافة الفاصلة بين ظلينا يناديني..

– سوار.. سيدة سوار..

ارتفع صوت دقات قلبي، ونبتت فيه ورود الأمل عندما أيقن أن هذا الصوت مألوف عنده. التفتت لأتأكد من أن آذان قلبي لم تخطئ صاحب الصوت، وعندما التفتت كان هو، السيد رشيد.

لم أستطع مراوغة القدر. فهو الوحيد الذي لا يزال مركونا على رف الذاكرة. آه أيها القدر، ها أنت تحاصرني أنا الهاربة من تخوم الماضي إلى حواف الحاضر، وإلى منتهى المستقبل المجهول، الذي لا علم لي بما يدخره لي من مفاجآت. كنت أريد أن أهرب من قدري دون أن أواجهه. فنحن نستطيع أن نواجه كل شيء ما عدا أقدارنا، إننا لا نقوى على مراوغتها فوق أرض قاحلة لا تصلح إلا لزراعة الأوهام. الآن ما عليَّ إلا أن أطلق العنان لنفسي لأرتمي في أحضان القدر، وأهيئ أسباب الاحتفاء بصدفة لقاء هذا الرجل، الذي كان يجري في اتجاهي، بينما بقيت أنا ساكنة دون حركة. وكأنه يريد أن يؤكد لي أن السعادة ليست في أن نصل إليها، بل السعادة في أن نواصل السير إليها. وعندما وصل إليَّ، التجأت إلى نفسي،

وتملكتني طمأنينة كمن عثر على ملجأ أمين. عجبًا لهذا القلب الذي لا يتعلم مهما جرح. رسم ابتسامتة على وجهه وقال باستغراب:

– ما الذي تفعلينه هنا يا سوار؟!

ابتسمت من أعماق قلبي وأجبته:

– كنت هنا لأرسل جثة ابني إلى الرباط عبر الطائرة التي أقلعت للتو..

أحسست أنه طغى عليه سرور عظيم، حاول أن يداريه عني، فاستدرك نفسه وقال:

– لكنك أخبرتني أنك مسافرة أيضًا!

قاطعته وقلت بنبرة هادئة:

– لكنني عدلت عن الأمر! وقررت البقاء هنا..

لمعت عينا رشيد واتسع ثغره، وما لبث أن قال بلهجة تشف عن فرحته وسروره:

– أشكر الله على ذلك! فهو استجاب لدعائي برؤيتك مرة ثانية..

وتقدم بخطوتين بطيئتين نحوي، وكأنه يتعمد مداعبتي بأنفاسه وقال:

– سأسافر الآن إلى اليونان يا سوار.. ما رأيك في مرافقتي؟

قالها بتردد وخجل، فأجبته دون تردد ودون أن أفكر كثيرًا:

– ومن ترفض زيارة بلد كاليونان..

اجتاحته موجة من الفرح، واغرورقت دموعه في مآقيها وقال ببهجة:

– إذن أنت موافقة!

ترددت بعض الشيء في الحسم في قرار السفر معه. كنت خائفة وخارجة من تجربة قاسية لتوي. كان القدر يخاتلني كضحكة امرأة ماكرة. لكن رغبة ما في داخلي كانت تلح عليَّ بالقبول، وتبديد الشكوك التي راودتني كلها على عتبات الممكن، وعدم الخضوع للمستحيل. استجمعت أنفاسي وابتسمت محاولة إخفاء توتري وترددي..

– أجل موافقة!

فابتسم ابتسامة عريضة، وبدأ يردد كالطفل الصغير:

– شكرا سوار.. أنا سعيد جدًّا لأنك سترافقينني..

النهاية

يسرا طارق 2019